البَابُ الثَانِي

النصوص

مقالات متناثرة

وللشيخ طنطاوى جوهرى مقالات ومحاضرات كثيرة غزيرة عثرنا على بعض منها متناثرة هنا وهناك فى عدة مجلات مختلفة : منها مجلة «النشرة الاقتصادية المصرية» التى كان يصدرها «منصور صدقى بك» سنة ١٩٢١ ، ومجلة «المعرفة» التى كان يصدرها «الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولى» فى الثلاثينات – رأينا أن نجمع شتاتها ونلم ماتفرق منها فى سمط واحد ، ونفرد لها قسما خاصًا من هذا الكتاب لتعم الفائدة ، فنكون قد أدينا ماعلينا من واجب لذلك الفيلسوف الكبير ، ولست أشك أن عدداً آخر من مقالات الشيخ طنطاوى مازال فى بطون الجرائد والمجلات . ولعلّ باحثاً فاضلاً يتولى استقصاءها من بعدنا . .

أمراضنا الاجتماعية

أيها السادة

إن الأمم اليوم قد تنبهت من غفلتها ، وقامت من سباتها ، والعلم يعدو حثيثا بالأمم إلى العلا . والإنسان اليوم غيره بالأمس ؛ هذه حركة فكرية عامة للتطور العام الاجتماعى الإنسانى ومصر التى شهد لها التاريخ بالتقدم على سائر الأمم أجدر أن تدلى دلوها فى الدلاء وأن تبحث مع ذوى الآراء فى الأمور الهامة والمسائل العامة ، وتحذو حذو الأمم الرافعة للعلم حتى لا يسلقنا خلفنا بألسنة حداد ويقول أبناؤنا : لقد قصر آباؤنا الأولون ، ونام علماؤنا السابقون ؛ فوجب علينا أن ننقى مجتمعنا من بعض المضار والمصائب التى من أهمها مسألة الخمر .

تحريم الدين للخمر :

أيها السادة حرم القرآن الخمر تحريما قاطعاً ولم يستثن حالاً من الأحوال ولا أباحها لمرض ولا أجازها لهضم الطعام ولا رضيها لتقوية الشهوة عليه ولا لإكثار الدم فى الجسم ، بل عمم التحريم فقال : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟ » (المائدة : ٩٠ ، ٩١)

التداوى به فى الدين :

اختلفت الفقهاء فى التداوى بها : فأباحه طائفة إذا لم يقم غيرها مقامها . وقال آخرون : الخمر لا يتداوى بها واستدلوا بالحديث الشريف : «لم يجعل الله دواء أمتى فيما حرم عليها» . ويقول القرآن : « فهل أنتم منتهون »

المدنية الحديثة والدين :

هجمت المدنية الحديثة فى الشرق ، وأخذت تسرع فى أسباب الرقى ، ففشت الخمر وعمت الأمصار والقرى ، وشاعت بين الخاصة والعامة ، وتبعها فى ذلك أنواع الحشيش والكوكايين وغيرهما ويقول القرآن : «رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»

مطاردة المدنية الحديثة للأديان :

كان أسلافنا يقيمون الحدود ويجلدون الشارب نحو أربعين جلدة ، فكان ذلك مخففا من سطوة الخمرة ومانعاً لطغيانها ، وكان لرجال الدين سطوة وبأس ، وكان الملوك والحكام أقوى معضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالاً لقوله تعالى «فهل أنتم منتهون»

جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها وشاركتنا فى الأولاد والأموال ، وهجمت علينا ولم يبق للدين سطوته ، فانحسر عن المدن إلى القرى ، ثم انحاز إلى أطراف البلاد وهى تطارد الدين ، ولكن المدنية بلا علم ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة كما قال الغزالى خير من الفطانة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكياء المغرورين : فإما الدين كله ، وإما العلم كله ! ونحن أخذنا من الديانات أسماءها ومن العلوم قشورها ، فخسرنا الصفقتين وربحنا الرزأين ، وسبقنا المتدينون وفاقنا من الفرنجة العلماء العاملون ، فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم ! أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؛ فحق علينا أن نبحث فى موضوع الخمر بحثا علميا حتى نكون قد أتينا البيت من بابه ورجعنا الأمر إلى نصابه ؛ فالعلم اليوم هو السلاح الذى به يصول قائد الفضيلة ، وبه يحارب النقيصة ؛ فبهذا السلاح أقاتل معكم وبقوتكم وهمتكم جيوش الجهل بين أبناء أمتى المصرية المحبوبة ، فلأقص عليكم أنباء ما عثرت عليه فى هذا الموضوع مرتبا على مقتضى الترتيب الزمانى وينحصر ذلك فى أربعة مباحث وهى :

١ – ما قاله علماء الاجتماع من أن الخمرة تفنى النسل وتستأصله

٢ – ما قاله علماء التشريح من أنها تورث الجنون فى الأقطار الجنوبية

٣ – أعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر وما جاء فى خطبة رئيسها فى مصر

٤ – ما جاء فى كتب الطب الأفرنجية وخصوصا الأمريكية وكيف منعوا التداوى بها .

المبحث الأول :

قرأت فى كتاب خواطر وسوانح فى الإسلام تأليف الكونت هنرى دى كسترى الفرنسى المطبوع فى سنة ١٨٩٨ فى صحيفة ١٣٥ : «وعندى أن هجرة القبائل إلى الصحراء الكبرى جنوبا من الجزائر وهْمٌ باطل بالقول بإمكان مضايقتهم فينزحون عن البلاد شيئاً فشيئاً . أما انقراض الأهالى بالتدريج بعد دخول التمدين الأوربى فنحن لا نصدقه إلا قليلاً ما ؟ فإن احتكاكهم بالمتمدينين ربما قلل من وسائل العيش عندهم ، ولكنه لا يؤثر فى وجودهم ، بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الأوربيين . ونضيف إلى ذلك أن المسكرات التى استعملها بعض الفاتحين للتعجيل على بعض الأمم المغايرة لهم لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديداً» . ولقد دهشت عند قراءة هذه الجملة وقلت ما قاله نصر بن سيار :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب أولها كلام
فإن كانت أمية فى سبات فقل : قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب كيف يقرأ قومى وهم غافلون ، اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ؟ وكيف يقول ذلك الفرنسى العظيم : إن الخمرة آخر سلاح تقتل به الأمم المستعمرة وبه فناء نسلهم ، وأهل بلادى فى غفلة ساهون . ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول ألم تقرأ أمتنا هذه المقالة أم قرءوا وهم لا ينتهون . فالمسألة موت أو حياة

المبحث الثانى :

قال العلامة الإنجليزى بنتام فى كتاب أصول الشرائع ترجمة المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا تحت عنوان الجرائم الشخصية : «النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الرجل كالأبله ، وفى الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون : ففى الأولى يكتفى بالمعاقبة على السكر كعمل وحشى ، وفى الأخرى يجب منع ذلك بطرق أشد ؛ لأنه شبيه بالتشرر . ولقد حرمت ديانة محمد ﷺ جميع المشروبات المسكرة ، وهذه هى محاسنها» انتهى كلامه .

المبحث الثالث :

منذ نحو ثمانى سنين جاء إلى مصر رجل من أعضاء دار الندوة (البرلمان) للسويد والنرويج ذكر أنه

رئيس جمعيات منع الخمر فى العالم وأنه زار جميع دول أوربا والشرق كفرنسا وإنجلترا وروسيا والصين واليابان ، وأن كل الحكومات ساعدته وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل ، وذكر أنه فى أمريكا حرم خمسة وأربعون مليونا الخمرة على أنفسهم (وكان ذلك قبل الآن وقد حرمت فى هذه السنة تحريما عاما فى هذه البلاد) . وقال : إن ولى العهد لبلاد السويد رُبى على ألا يشرب الخمر ، . ونحن نفتخر بأنه أول ملك لا يشرب الخمر فى أوربا . فرد أحمد زكى باشا قائلا : هناك ثلثمائة مليون هم أعضاء عاملون فى منع الخمر وهم المسلمون !

المبحث الرابع :

كنت منذ بضع سنين عند طبيب نطاسى مصرى ، فأرانى كتاباً إنجليزيا مؤلفه أمريكى وقال : إن مؤلفه يقول فيه : إنى لست أبحث فى منع الخمر للسكر فهذا فرغ منه العلماء وإن بحثى اليوم فى مضاره الطبية وإن التداوى به يجلب للإنسان أمراضا لا قبل له بها ؛ فإذن التداوى به ممنوع طبيا وليس فيه أدنى فائدة ! فقلت له لماذا لا ترفع صوتك بهذا فى البلاد ؟ فقال : إن إخوانى الأطباء يسلقوننى بألسنة حداد ! فقلت : أليس فى أمريكا علماء محققون ؟ فقال : بلى ، ولكن لا يطاع لقصير أمر ! فلما دعيت للخطابة فى هذا الموضوع طلبت منه الكتاب وهو يسمى كتاب اليد الطى تأليف الأستاذ كيلوج . كتب تحت عنوان الاستعمال الطبى للخمر من صفحة ٤٧٥ إلى ٥٠٤ ، فلأذكر لكم جملاً منه وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه إن رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوربا وإلا فساعدوا على منعه كما منعته أعظم الأمم علما ومقاما وهى أمريكا . قال المؤلف : من كان عنده أقل ريب أو ظل للشك فى أن الخمر سم فليعتبر بما يكون عند وصوله للمعدة ؛ فإن الغشاء المخاطى يصير محتقنا ويخرج مقداراً من المخاط ليحمى نفسه ، ونرى غدد المعدة وقواها الدافعة تسرع فى إخراج ما وصل إليها بأسرع ما يكون ! أليس ذلك مزيلاً لشك الشاكين وريب المرتابين فى أن الخمر من أنواع السم ؟ وقال الأستاذ (ليبج) : إنه إذا اعتدل الإنسان فى شربه قوى جسمه وأكسبه نشاطا ، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين – للبان والأستاذ بيرن والأستاذ دروى ثم الأستاذ ادوارد سميث الإنجليزى – وقد برهن الثلاثة الأولون على بطلان ما تقدم بقولهم : إن الخمرة تخرج من الجسم ولا أثر لها ؛ وزاد الأخير بقوله : إنه حلل الدم فلم يجد فيه أدنى شىء من العناصر التى يتركب منها الخمر . وقال الدكتور ملر الأسكتلندى : الخمر لا يشفى شيئا ! وقال الدكتور هيجنو ثوم أمام الجمعية الطبية البريطانية : أنا لم أعلم مرضا قط شفى بالخمر ! وقال الدكتور جونسون الإنجليزى : إن الخمر ليس ضروريا البتة ليستعمل دواء ! وقال فى إبطال قولهم – إن الخمر غذاء وإنه يحفظ الجسم أو

يقوى العضلات – ما هذه القوة ؟ إن هى إلا اسم آخر من أسماء السموم : كقولنا فلان نشوان طرب ثمل معناه مسموم ، وبرهن على ذلك بقوله : إذا أدخلنا الخمر أو أى سم آخر من العقاقير السامة التى تعد بالمئات فى الجسم فإن جميع الأعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لإخراجه من الجسم ، ومن هنا كان النشاط . وقال فى نقض قولهم – إن الخمرة تمنع المرض إن الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة فإذا كان ما يقولون حقا فأضرار الخمرة أشد من الأمراض فتكا بالأجسام فكيف بها إذا كانت لا تشفى منها شيئا فإن تجارب الأطباء السابقة تثبت أنه لا يترك أثراً فى النسيج ، والأثر الحقيقى إنما يكون فى النسيج ؟

وقال الدكتور سميث الإنجليزى ردًّا على الأستاذ لبيج : إن الخمرة بسببها يخسر الجسم جزءا من الحرارة ؛ فمن الضرر أن يتناول المريض شيئا من الخمر ، فأثبت أنه لا يمنع فقد الحرارة ، بل يزيد ذلك الفقد ! ومن العجيب أن سيدنا محمداً ﷺ أثبت ضرر الخمر فى الحديث الصحيح : فقد جاء فى صحيح مسلم مع شرح الإمام النووى صحيفة ٣٦٤ أن طارق بن سويد الجعفى سأل النبى ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصفها فقال : إننى أصفها للدواء ؛ فقال الرسول ﷺ : « إنه ليس بدواء ولكنه داء ! »

أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث ؟ يقول الدكتور سميث : إن الخمرة تسبب للجسم خسارة جزء من الحرارة ، وقد منعت الدولة الأمريكية الخمر بتاتا بناء على أمر الأطباء وعلى الاكتشاف الحديث المنافى لآراء الدكتور لبيج ، وهذا الكشف الحديث معجزة إسلامية ، وقد أثبت الدكتور باركس ثم السير جون هول « مفتش عموم الجيش البريطانى » والدكتور كاربنتر والدكتور هنرى مارتن وآخرون غيرهم أن الخمر لا يشفى المرض ولا ينفع الجسم ! وقال فى إبطال قولهم – إن الحب والفاكهة فيهما سم – إن بعض الناس يقول – إذا كان فى الخمر ضرر – فذلك ليس خاصا به ، إنه من الحب والحب فيه قليل من السم ؛ فلم أكثر الأطباء من ذم الخمر مع أن السم عام فيه وفيما أخذ منه ؟ فأجاب عن ذلك بقوله : نعم إن الخمر من الحب ومن ذا يقول إن الحب فيه سم ؟ إن الحب لم يكن سماً إلا بعد إتلافه ، فليس الخشب دخانا ، وليس الحب خمراً ولا جرم أن السم حدث فى الفاكهة والحب بعد إتلافهما ! .

فالحب لا سم فيه ، وكذلك الفاكهة ، ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور فهى كاذبة فهل تدس الطبيعة التى أعدت لنا الحياة السم فى الدسم ؟ كلا . . وقال فى إبطال قولهم – إن الشرب المعتدل لا يضر – إن كلمة (إنتوكسيكيشن) مشتقة من كلمة لاتينية معناها السم ، فالشرب المعتدل يصير عادة لا يتخلى الشارب عنها فهو يتجرع السم قل أو كثر فويل للشاربين ! وأبطل قولهم : إن

الخمر الصافى لا يضر ، فقال : (إن الخمر الصافى سم صاف) .

فإذا احتج الشارب بأمثال هذا فقد ضل ضلالا مبينا لأنه ثبت أن الخمر سم سواء أكان نقيا أو مخلوطاً ، فهو ضار للصحة مهلك للأبدان . ثم ذم الأطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات فقال : إنه من موجبات الأسف المحزن ذلك المنظر الذى تتقطع له القلوب أسى – أن يخضع العالم أمام جنود الشهوات والرذيلة المخزية ! ومما هو جدير بالذكر أن أولئك الأطباء الذين لا ينصحون بشرب الخمر ويحضون عليه يصبحون هم أنفسهم مغرمين به عاكفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم ومرمى سهامهم وقتلى علمهم وهم لا يشعرون أو ليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم فى ذلك أوحت بها شهواتهم وقضت بها أوهامهم وهم عن العلم معرضون ألا ساء ما يصنعون !

وأخذ يبطل قول الشاربين – إن الخمر يمحو الهم والكسل ويجعل الفقير الذى لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه ذو غنى أو ملك – فأطال فى ذلك وقال فى الرد عليه : إن الإنسان إذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه وفقد الإحساس ونسى ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها لعاجز عن الاعتبار لتلك التجارب العالية الرفيعة القدر الشريفة المنزلة والشعور الشريف الذى تكون به البهجة العالية بالحياة الحقيقية ، وإن الفرار من الحق جبن . وأبطل ما يدعيه الشاربون من قولهم : إن الخمر لا يضرنا ؛ ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون المخدرات والمسكرات من الأفيون والخمر ونحوها وقال إنهم فريسة لها ويأتيهم الموت من حيث لا يعلمون . وأخذ يدحض حجة أخرى للشاربين الذين يقولون : إن الخمر عادة إنسانية وطبيعة بشرية وكيف لا ونحن لا نرى أمة إلاّ شربت الخمرة ولا جيلا إلاّ عاقرها ولا قبيلا إلاّ كرع منها ؟ وها هم أولاء اليابانيون والصينيون والشرقيون والغربيون والمسلمون والنصارى واليهود والمجوس والبوذيون كل منهم يشربها ، ومن ذا يقاوم الطبيعة ، أو من ذا يقف فى طريقها ؟ فرد عليهم قائلا : أليس فى هذه الأمم ضالون وفاسقون وكذابون ومنافقون ومخادعون ولصوص خائنون ؟ فكيف يحتج الشارب بفريق السكارى مدعيا بأنه طبع فى البشر . أفلا نأسف لشيوعه ونأنف من وقوعه وتكاثره فى بنى الإنسان ! إنه من موجبات الحزن والأسف لا مما يحتج به للاعتذار ويصار إليه للتقليد والاتباع .

هذه نبذة من آراء المؤلف كيلوج الأمريكى ، ولا ريب أن الحكومات لا تقطع أمراً حتى يثبته العلماء ويطلبه الشعب ، ولولا أمثال مؤلف هذا الكتاب ما منعت أمريكا الخمر ، ومصر أولى بذلك لأنها فى أول نهضتها بين الأمم الإسلامية ، ولأن الخمرة ضرتها كثيراً . ولى أمل فى رجال الطب وعلماء الأمة أن ينصحوا للشعب بالإقلاع عن هذه العادة . والله موفقنا إلى الإصلاح .

عن العدد ٦٤ والعدد ٦٥ السنة الثانية الصادرين
فى ١٨ و ٢٥ من أبريل سنة ١٩٢٢
من « النشرة الاقتصادية المصرية »

الفلسفة عند العرب*

أيها السادة :

إن الأمم اليوم تجد فى التنقيب عما خلفه الأولون والبحث فيما أورثه الأقدمون ، ولقد رأينا بأعيننا أهل أوربا يكشفون ما خبأه الزمان الغابر وما دفنه الدهر الدائر فى بطون الدفاتر وغضون المقابر والقصور المعطلة والبلاد المهدمة والأطلال الدارسة والدمن المهجورة والأجسام المقبورة واللحود المطمورة ، وما كفاهم ذلك فى آبائهم وآثار قدمائهم حتى جاسوا خلال الصين والهند والعراق ، ونشروا خط أهل سبأ ، ودرسوا علم الأشوريين والبابليين ، وفسروا علومهم ، وصوروا مدنهم ، وترجموا لغاتهم ، ونقبوا فى البلاد المصرية عن الآثار الهيروغليفية والعلوم اليونانية والنقوش والآيات الحكمية ، واستخرجوا من النواويس وأجداث الملوك نفائس النقوش وغرائب الصور وبدائع العلوم ، ومالنا نذهب بعيداً فها هى ذى أمتنا المصرية أخذت تجارى الأمم وتنافس الدول ، فجمعت آثار قدمائنا من العرب والفراعنة فى متحفين عجيبين ، وأخذت تدرس اللغة العبرية فى الجامعة المصرية ، ومن الشبان من أخذوا يتبارون فى تقليد آبائنا فى بعض الشمائل والمزايا وهم يجدون .

إذا ثبت ذلك فهل من المعقول أن ننبذ ما درسه الآباء وسطره القدماء فى الكتب الفلسفية والعلوم العقلية والعجائب الحكمية ؟ أو ليست العلوم تساوى النقوش القديمة والآثار البائدة ؟ فإذا كنا نرى أمثال العلامة سيديو الفرنسى ومؤلف كتاب البطولة والأبطال يدرسان علوم العرب ولغاتهم وآدابهم — أفلسنا نحن أجدر أن نسابق العلماء ونقرأ ما خطه السلف ونحرص عليه حرص الشهم على كرائمه ؟ وها هى ذى « الجامعة المصرية » قد أخذت تدرس فن الفلسفة العربية ، ولقد علم حضراتكم أن هناك محاورة دارت بينى وبينها فى أمر الفلسفة ، وألفت رسالة أرسلتها إلى ذوى الحل والعقد هناك ، وكان ذلك مع حسن التفاهم والوصول إلى الحقائق الثابتة ، فعلى كل ذى علم أو رأى أن يبينه لإخوانه الوطنيين حتى يرتفع شأن الأمة . ألا وإن كاتم العلم ملعون ، فحرام على امرئ أن يكتم علماً حرصاً على راحته أو ميلاً إلى سلامته وفى الحديث الشريف « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » . وقال تعالى فى ذم من كتم علماً : « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ومن أراد سعادة المجموع بما وُهب له من قدرة كان ذلك خيراً وأعظم أجراً .

* محاضرة ألقاها الشيخ طنطاوى بدار نقابة المعلمين فى شهر أبريل سنة ١٩٢٢ .

وجاء فى الشريعة الإسلامية أن العلوم والصناعات واجبة فرض كفاية ، فإذا تركت الأمة علماً أو صناعة عذبت فى الدنيا بالذلة والهوان وفى الآخرة عذابا أليما . إذا تقرر هذا فإنى أعرض على حضراتكم بعض ما وقفت عليه من علوم قدمائنا ، وأقص عليكم منه جملاً ، ولست أقصد أن العلوم العصرية كلها من القديمة ولا أن أذم الحديث ، بل أنا به مغرم ، ولا أن أتعصب لمجد الآباء ، كلا ؛ وإنما أريد تبيان الحقائق وإظهار بعض ماكمن من آرائهم فى كتبهم ، وأبين ما عثرت عليه فى المخترعات العصرية الثابتة عن قدمائنا كما أوضحه العلامة سيديو الفرنسى الذى قال : إن أكثر الكشف الحديث مأخوذ من كتب أسلافنا . ولأبتدئ بتعريف الفلسفة ، ثم أقفى بعد ذلك بتقسيمها ، ثم أبين مسائل مما كشفه الفرنجة والعرب بها سابقون . والمراد بالعرب كل من اتخذوا لغة العرب فى دراساتهم من فرس وعرب وغيرهم من أهل الشرق .

* * *

تعريف الفلسفة وأقسامها :

لقد كثرت الأقوال فى المجالس الخاصة والعامة فى تعريف الفلسفة ولكل وجهة هو موليها . ولقد ظن كثير من العقلاء أنها أمر مغلق ، ومنهم من ظن أن التوسع فى موضوع ما فلسفة ، ومنهم من ظنها كثرة الجدل وإفحام الخصم ، ومنهم من يراها أمراً لا أول له ولا آخر ، أو كل من توغل فى علم فهو فيلسوف ؛ وعلى هذه المعانى المتعارفة بين الناس لو أن امرأً رأى ذلك الرجل الذى يلعب فى الأعراس وهو يقلب عموداً أسفله مدبب وأعلاه معجم بهيئة مخروط وهو ثقيل وعظيم ويقلبه الرجل بكفيه تارة يقع على جبهته وثانيا على يديه وثالثا فوق أخمص قدمه والرجل يتلوى كأنه الخلبوص (أى العصفور الصغير) – لو أن امرأ رأى هذا لقال عليه : إنه فيلسوف ! وكذلك لو سمع ما روى من أن صاحب القاموس الفيروزابادى وهو فى بلاد الروم قيل له ما معنى قول سيدنا على كرم الله وجهه : « الصق روانفك بالجيوب ،وخذ المزبرة بشناترك ، واجعل حندورتيك إلى قيهلى حتى لا أنغى نغية إلاّ أودعتها حماطة جلجلانك

فأجاب الفيروزابادى : « الزق عضرطك بالصلة ؛ وخذ المسطرة بأباخسك ، واجعل جحمتيك إلى أثعبانى حتى لا أنيس نبسة إلاّ وعيتها فى لمظة رباطك ! » فالإجابة والتفسير كالمفسَّر كلاهما مغمض لا يفهم ، فلو سمعها من يرى هذا الرأى لقال : هذه فلسفة : أى كلام غريب ! ومعنى الكلام المتقدم : « الصق مقعدك بالأرض ، وخذ القلم بأصابعك ، واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا أنطق كلمة إلاّ وعيتها فى حبة قلبك ! » .

وهذه لا يدعها الناس حتى يعرفوا تعريف الفلسفة . يقول القدماء : الفلسفة هى معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه بقدر الطاقة البشرية . ويقال : إن أولها محبة العلوم ، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة البشرية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم . والحقائق المذكورة تنقسم قسمين ، علمية وعملية ؛ والعلوم العلمية هى الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات ، والعلوم العملية ثلاثة أقسام : سياسة النفس بعلم الأخلاق ، وسياسة المنزل بعلم تدبير المنزل ، وسياسة الأمة بالسياسة العامة . فالعلوم الرياضية أولها الارتماطيقى ، والثانى الجو مطريا ، والثالث الإسترونوميا ، والرابع الموسيقى :

أما الارتماطيقى فهو علم العدد ومعرفة ماهياته وكيفيته وكميته وخواصه ، وبمعرفته يتدرج إلى سائر الرياضيات والطبيعيات . إن علم العدد جذر العلوم ومبدأ المعارف ، ويتفرع منه علم الحساب المفتوح (الحساب العقلى) ، وحساب (التخت والميل) وهو المتداول فى المدارس عندنا والجبر وعلم الدرهم والدينار الذى يحل المسائل التى لا يحلها الجبر .

العلم الثانى : الهندسة وبيان ماهيتها وكمية موضوعاتها وأنواعها ، وهى تبحث عن الخط والسطح والجسم .

العلم الثالث : النجوم ومعرفة تركيب الأفلاك وصفة البروج وسير الكواكب .

العلم الرابع : الموسيقى وهو المدخل إلى علم صناعة التأليف والبيان ؛ لأن النغم والألحان لها تأثير فى نفوس المستمعين لها ، كتأثير الأشربة والترياق فى الأجسام الحيوانية ، وهذه العلوم لها فروع كثيرة كعلم البنكامات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جرّ الأثقال .

وإنهم برهنوا على ثقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة رطل ، وكذلك علم أنباط المياه ، أى استخراجها من الأرض ؛ وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم عقود الأبنية لتنضيد المساكن وشق الأنهار ، وعلم المناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها ، وعلم مراكز الأثقال ، وعلم المساحة .

أما العلوم المنطقيات فهى خمسة :

أولها : إيساغوجى ، وهى الألفاظ الستة التى تستعملها الفلاسفة فى حججهم ومحاوراتهم .

ثانيها : المقولات العشرة ، وتسمى قاطيفورياس ، وهى عشرة ألفاظ دالة على الأجناس العالية لا يخرج معنى من الموجودات عنها .

ثالثها : القضايا ، وتسمى بأريمينياس ، وهى الكلام فى العبارات وأدائها على حقها

رابعها : القياس ، وتسمى أنولوطيقا الأولى .

خامسها : البرهان ، ويسمى أنولوطيقا الثانية .

* * *

١ – سماع الكيان يبحث فى الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة .

٢ – السماء والعالم يبحث فى أن هذا العالم كله كأنه حيوان واحد أو إنسان واحد له نفس واحدة ، وجميع أجزائه تستمد بعضها من بعض .

٣ – الكون والفساد وهو معرفة خواص الهواء والماء والتراب والنار وامتزاج بعضها ببعض .

٤ – الآثار العلوية وهو معرفة الآثار الناجمة من أشعة النيران الساقطة على الأرض بزوايا حادة وقائمة ومنفرجة ، وتلك الزوايا واقفة بين خطى السقوط والانعكاس ، وبهذه الزوايا واختلافاتها يختلف الحر والبرد ، وتكون السحب والأمطار والرعود والبروق والثلج والبرد والزلازل والبراكين والمغاور فى باطن الأرض .

٥ – علم المعادن ويبحث فى أشكالها وأصنافها ، وأن أدناها متصل بالتراب ضعيف التركيب وذلك كالجص والملح ؛ وأعلاها الياقوت والذهب ، وإذا كان أدنى المعادن متصلاً بالتراب فأعلاها وهو الذهب متصل بأول النبات الأثرى الكمأة وخضراء الدمن التى تخرج أول النهار بالفدوات وتيبس وقت الهجيرة . فهذه أقرب إلى المعدن ، وتسمى نباتاً معدنيا ، ويترقى النبات عن هذه الدرجة إلى الشجر الذى كماله بتسعة أشياء وهى : العروق ، والجذوع ، والأغصان ، والفروع ، والورق ، والزهر ، والثمر ، واللحاء ، والصمغ ، وعلى هذا يرى أن شجر الطرفاء مثلاً ينقصه الزهر والثمر والصمغ واللحاء . وأعلى الشجر النخل ، فإن جسمه نباتى ونفسه حيوانية ! ألا ترى أنه إذا قطع رأسه مات وأنه يتميز ذكره عن أنثاه ؟ .

فأما النباتات الأخرى فإن قدماء الفلاسفة كانوا يقولون : إن البذرة فيها التذكير والتأنيث ، ولكنا لم نفهمها إلا فى الكتب الحديثة لأنه وجد زهر الذكور وزهر الإناث ليلقح الأول الآخر وذلك إما فى زهرة واحدة كما فى القطن ، وإما فى زهرتين كما فى القرع وأمثاله ، فأما تمييز الذكور عن الإناث من الأشجار فلا نعرفه إلا فى النخل . فلذلك قالوا : إن نفسه حيوانية وجسمه نباتى ، أما الكشوثى فهو نبات لا ورق له ولا عروق ضاربة فى الأرض ، ولكنه يعيش على غيره كالحيوانات ، فهو كالنخل جسم نباتى ونفس حيوانية ، وفى العلم الحديث من هذا كثير حتى عرفوا منه ٣٣ نوعاً تنحو هذا النحو .

وأعلى النبات متصل بأدنى الحيوان وهو الحلزون والدود الذى فى الثمار وفى جوف الحيوان .

فالحلزون دودة فى جوف أنبوبة على شطوط الأنهار تنقبض إذا لامسها شىء ولا سمع لها ولا بصر ، وهكذا الدود الذى فى جوف الثمار والحيوان ، وهذا يشارك النبات فى الحس ويتميز عنه

بالحركة الاختيارية ويقال له حيوان نباتى . وإنما قلنا : يشارك النبات فى الحس ، لأن النبات يحس بالمواضع الندية فيمتد إليها ويتجافى عن المواضع اليابسة . وإذا رأى ضوءاً نزل من ثقب وهو تحت سقف عدل عن طريقه ومال إلى ذلك الضوء ! فهذا معنى قولنا : إن النبات له إحساس شارك الحيوان فيه ، ويتميز عن الحيوان بالحركة الاختيارية ، والحيوان يرتقى إلى ماله حاستان كالدود الذى على الأزهار والأشجار ؛ فإن له حاسة الذوق ؛ وإلى ماله ثلاث حواس وهو ما فى جوف البحار العميقة ؛ فإنه يزيد حاسة الشم ولا سمع له ولا بصر ؛ وماله أربع حواس فيزيد حاسة السمع وهو نوع يقال عنه الحلم يعيش فى المواضع المظلمة ، ثم ماله خمس حواس وهذا ما فى البحار وهو السمك ، وإما فى التراب وهو الهوام ، وإما على وجه الأرض وهى الأنعام والبهائم والدواب والوحوش والسباع ، وإما فى الهواء وهى الحشرات والطيور والجوارح . ومن الحيوان ما يترك أولاده فى الفلوات كالحشرات تترك بيضها للطبيعة كالناموس والذباب ، وإما أن يحفظ بيضه كالطيور والجوارح وهما أعلى مما قبلها . وإما أن تتربى أولادها فى بطنها وهى ذوات اللبن كالأنعام والوحوش والقردة والإنسان .

وأعلى الحيوان القردة والفرس والفيل : فالقرد قارب الإنسان بصورته ، والفرس بخلقه النفسى ، والفيل بذكائه .

(وهذا مذهب داروين)

نحن لا يسعنا الإطالة فى إيضاح هذه العلوم . ولننقل الكلام إلى القسم الإلهى ، العلم الأعلى والعلم الكلى ، علم ما وراء الطبيعة ، وهو يبحث فى الأمور العامة مثل الوجود والوحدة والقدم والحدوث ، ومثل النظر فى مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها ، ومثل النظر فى إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفرده بالربوبية .

وليس هذا العلم يبحث عن أمور غير مفهومة كما يظنه كثير من الناس . ، بل هو يبحث عن العلوم العامة التى ليست لها خاصة بالرياضيات ولا بالطبيعيات . فتقسيم العلوم مثلا ليس خاصا بأحدها ، أما الرياضى فهو يبحث عن مقادير الأشياء المتصلة وهى الهندسة والفلك ، والمقادير المنفصلة الحساب والموسيقى ، ثم الطبيعيات تبحث فى تغييرات المادة : فعلم النبات والمعدن وغيرهما إنما هى صور للمادة بتغييراتها ، أما العلوم التى لا تخص الرياضى ولا الطبيعى فمثل النظر فى إثبات الجواهر المجردة من العقول والنفوس والملائكة وحقائقها ، ومثل أحوال النفس البشرية بعد مقارنتها الهياكل الإنسانية وحال المعاد .

هذه هى الأقسام العلمية . أما العلوم العملية فهى ثلاثة أقسام :

١ – علم الأخلاق والبحث فى القوى الثلاث : الشهوة ، والعقل ، والغضب ، ثم العفة والشجاعة والحكمة والعدل ومعاشرة الأصدقاء وغير ذلك .

٢ – علم تدبير المنزل ومعاشرة الأهل والخدم وسياستهم ، ونظامهم وأنه يجب على رب الأسرة أن يسير معهم على نمط واحد ووتيرة واحدة لا يغيرها حتى لا يندم إذا تغيرت أخلاقهم إلى غير ذلك .

٣ – السياسة المدنية . وينظر هذا العلم فى الجامعة الإنسانية كجامعة الجنس والدين والوطن واللغة والملك الجامع للأمة وكيف كانت هذه تنافى آراء أهل المدينة الفاضلة ثم النظر فى أن سياسات الأمم مبنية على عقائدها ، ثم بيان المدن الضالة والفاسقة والمنحرفة والجاهلية مما أوضحه الفارابى فى كتابه كتبيان أن المدينة الفاضلة يرجع نظامها إلى نظام الجسم الإنسانى مقيساً عليه فى الأعضاء الخادمة والمخدومة مع الإلمام بعلم التشريح . هذه مقاصد علم الفلسفة العلمية والعملية ولقد قسموا العلوم فبلغت ثلثمائة علم مفرعة على هذه الأصول ونيفا .

الكشف الحديث الذى كان معروفاً عند القدماء

وإذْ فرغت من الفلسفة وفروعها فلأ تكلم على ما عثرت عليه فى كتب أسلافنا . وظنته أمم الفرنجة كشفا حديثا . والذى عثرت عليه أربع مسائل :

المسألة الأولى – رقاص الساعة :

يقولون : إن المخترع له « غاليليو » المولود « ببيزة » سنة ١٥٦٤ المتوفى سنة ١٦٤٢ قال فى قاموس لاروس : أن غاليليو حضر يوما فى كنيسة ببيزة صلاة فقام فيها ، فاستوقف نظره المصباح المعلق فى قبة الكنيسة ، ورآه يهتز ببطء ، ولاحظ أن الهزات وهى تتناقص فى الاتساع مرة بعد مرة حافظة دائما لوقت واحد ، فكان ذلك سببا فى كشفه ناموس توازن هزات الرقاص . هذا هو الرأى السائد الآن فى بلاد الشرق والغرب وقد كذب هذا القول العلامة « سيديو » الفرنسى فى كتابه تاريخ العرب (صفحة ٢١٤) ؛ إذ أبان أن الحروب استمرت على « الأمة المحمدية » أكثر من مائتى سنة ، وانطفأت مصابيح العلم تقريباً إلاّ من « مصر » ، فصارت مركزاً جديداً للاشتغال بالعلوم والفنون زمن الفاطميين ، واشتهر أبو الحسن عباس بن أبى عبد الرحمن بن حمد المشهور بابن يونس بن عبد الأعلى بأنه كان متصرفا فى سائر العلوم ، فاخترع رقاص الساعة الدقاقة ، ثم مات سنة ١٠٠٧ ميلادية أقول : فيكون « غاليليو » مسبوقا به بستة قرون . وقال فى صفحة ٢١٥ : « ولقد تعجب أهل طليطلة من ساعته الدقاقة وذلك فى نحو نصف القرن الثانى عشر الميلادى . فكان اختراع « ابن يونس » لم

يعرف فى طليطلة إلاّ بعد مائةٍ وخمسين سنة .

هذه قضية رقاص الساعة حققناها ولم يبق لديكم شك فى أن قول بعض مؤلفى الإنجليز والفرنسيس إن المخترع غاليليو جاء الخبر بتكذيبه من علماء فرنسا ، وأن (مصر) فى زمن الفاطميين كانت دار اختراع ، فاذكروها للأبناء لعلهم يعلمون .

المسألة الثانية – دوران الأرض :

جاء فى قاموس لاروس وفى سائر الدوائر العلمية أن الكاشف لذلك « كوبرنيكوس » ومعه غاليليو ، وأنهما فتحا فتحاً جديداً للإنسانية وحركا الأرض بعد سكونها وأيقظاها من سنة الغفلة بعد نومها وهأنذا أسرد لكم تاريخ مسألة الأرض بأوجز عبارة فأقول :

كان فيثاغورس يعلم تلاميذه فى مدرسة « كروتونيا » من بلاد إيطاليا على طريقة حركة الأرض وذلك قبل ميلاد « سيدنا عيسى عليه السلام » بخمسمائة سنة حتى جاء بطليموس قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة ، فاختار القول بسكون الأرض وحركة الشمس ودورانها عليها ، فاشتهرت فى البلاد واتبعه « ابن سيناء » و « الفارابى » وأمثالها من علماء الإسلام . كل ذلك فى كتاب العلامة المرحوم « عبد الله باشا فكرى » الناقل عن كتاب « أسرار الملك والملكوت وشرحه المرسوم بأفكار الجبروت » وهو باللغة التركية ومتنه بالعربية . ثم ظهر « كوبر نيكوس » الذى مهر فى العلوم الرياضية من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهى سنة ٩٧٣ هجرية فرجع إلى طريقة فيثاغورس ، فظهر أن دوران الأرض جول الشمس هى القديمة وتسميتها جديدة خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة . والطريقتان مذكورتان مستفيضتان فى الكتب الإسلامية وقد ذكرهما العلامة « عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد » المتوفى سنة ٧٥٦ من الهجرة فى كتابه المسمى « بالمواقف » وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة ، ثم كرّ على تلك الاعتراضات بالنقض والرد ، وجرى معه على ذلك شارحه (السيد الشريف على بن محمد الجرجانى) المتوفى سنة ٨١٦ فى شرحه . وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد وإليكم أيها الإخوان بعض ما قاله المصنف فى متنه مع شارحه صفحة ١٤٧ فى المقصد الثالث قال :

« الحركة اليومية (حركة الشمس) لا توجد ، إنما تتخيل بسبب حركة الأرض ، إذ يتبدل الوضع من الفلك دون أجزاء الأرض ، فيظن أن الأرض ساكنة والمتحرك هو الفلك ، بل ليس ثمة فلك أطلس : وذلك كراكب السفينة : فإنه يرى السفينة ساكنة مع حركتها حيث لا يتبدل وضع أجزائها منه ، وكذلك يرى القمر سائرا إلى الغيم حيث يسير الغيم إليه ، وهذا كله من غلط الحس »

انتهى ملخصا فها هو ذا عضد الدين قبل كوبرنيكوس بنحو ١٨٠ سنة فيكون هذا كشفا للأوربيين ؛ لأنهم كادوا يقتلون كوبر نيكوس وغاليليو الذى اتبعه لكفرهما فى نظر علماء الدين كما هو معلوم . أما عضد الدين وأمثاله فكانت كتبهم تدرس فى الشرق .

المسألة الثالثة – مسألة الجاذبية :

يزعم علماء الفرنجة أن الكاشف للجاذبية إنما هو إسحق نيوتن الإنجليزى وأنه رأى ثمرة سقطت من الشجرة على الأرض ، فأخذ يفكر فى الجاذبية . وهذا البحث سبقه فيه علماؤنا بقرون . ألا ترى ما جاء فى شرح العلامة محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية على كتاب الإشارات لابن سينا صفحة ١١٧ ، قال : « قال ثابت بن قرة إن المدرة تعود إلى السفل لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة فى كل الأعراض : أعنى البرودة والكثافة والشيء ينجذب إلى الأعظم » وثابت بن قرة كان فى أيام المطيع العباس المتوفى سنة ٣٦٣ هـ . وقال الشارح فى صفحة ٢١٦ : « إنا إذا رمينا المدرة إلى فوق فإنها ترجع لأسفل ، فعلمنا أن فيها قوة تقتضى الحصول فى السفل حتى إنا لما رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوة إلى السفل » . وقد أطال العلامة ابن سينا وشارحه فى هذا الموضوع ؛ فظهر من هذا أن مسألة الجاذبية سبق بها علماء الشرق بقرون عدة ؛ فإن ثابت بن قرة سبق إسحق نيوتن بنحو ستة قرون ، والرازى سبقه بنحو ثلاثة قرون .

ومن العجيب أننى بعد ما سطرت هذا قابلنى صديقى عبد الحميد بك فهمى فأرانى كتابا فرنسيا فى تاريخ العرب ومغاربى إسبانيا . فترجم لى منه ما لفظه فى صفحة ١٧٥ جزء ثان لمؤلفه الشهير لويز فياردو : وأخذ العلامة (كيبلر) الشهير معلوماته عن انكسار الضوء فى الجو بعد اطلاعه على ما ألفه (أبو الحسن على بن سهل) المتوفى سنة ١٠٣٨ ميلادية بمدينة القاهرة وهو شهير بما ألفه من الكتب فى علم الضوء وما كتبه عن الشفق وربما كان إسحق نيوتن نفسه مديناً للعرب بمعرفة المعلومات الأولية لنظام العالم أكثر مما يدين لتفاحة قصره (ولسترد) ؛ إذ يظهر أن محمد بن موسى المذكور فى (المكتبة العربية قسم الفلسفة) عندما كان يؤلف كتبه فى حركة الأجرام السماوية وخواص الجذب كان أسبق منه إلى ولوج هذا الباب ، فتكلم عن هذا القانون العظيم المستنبط منه ما سواه . وقال فى صفحة ٢٠٤ جزء ثان :

ومن الغرابة بمكان عظيم أن نبحث فى كثير من الأشياء المختلفة فنجد أن العرب فيها كانوا نموذجا للفرنجة بأوروبا : فمثلا فى ابتداء القرن الثامن للميلاد رأينا عتبة بن الحجاج ينشئ طائفة من الجند أعدها لقطع دابر المفسدين فى الأرض سماها بالكشافة وهنا يرد على اعتراضات الأول لقائل أن

يقول : (١) إنك قد خالفت ما أجمع عليه الناس (٢) إنك تفخر بمجد الآباء ولا فخر لك (٣) إنه تعصب دينى أو جنسى (٤) إنه لغو الحديث ولا معنى لهذا البيان (٥) إن الكشف الذى جاء حديثا قد استوفى المباحث وماضيه لا عبرة به لنقصه.وأنا أجيب عن هذه الاعتراضات:أما الجواب عن الأول وهو أنى خالفت الإجماع فأقول : قال العلامة سيديو الفرنسى فى كتابه صفحة ٢٣٢ وصفحة ٢٣٣ : وظهر التمدين العربى المتسع به نطاق لسان العرب الذى أدخله مترجمو الكتب اليونانية فى الاصطلاحات فسهل انطباقها على المعلومات التى عزا الفرنج اختراع أكثر اكتشافاتهم إلى علماء منهم كانوا بالقرن الخامس عشر والقرن السادس عشر مع أن اختراع أكثرها إنما كان للعرب الذين اجتهدوا فى تقدم العلوم ؛ وذكر لذلك عشرة أدلة : منها أن تلك الاكتشافات وجدت مكتوبة فى كتب عربية بخط اليد التى ظفرنا بها . فإذا أثبت سيديو وإخوانه من علماء الفرنجة أنهم وجدوا أكثر الاكتشافات بخط اليد فى كتب عربية فلا عجب إذا وجدت أنا ثلاثة أو أربعة ومئى وجدت غيرها أبرزتها إلى أهل هذه البلاد المباركة الطيبة.

الثانى وهو الفخر بمجد الآباء أقول : لست أفتخر بالقدماء وإنما أريد الحقيقة ودفع الجهل .

وجواب الثالث أنه تعصب أنى لست متعصبا دينيا ولا جنسيا ، فإن ثابت بن قرة كان مسيحيا ، ولكنه شرقى ولم لا نعطى القوس باريها ؟ ولم لا تنسب الحكمة إلى أهلها ؟

وجواب الرابع وهو أنه لغو ، أقول : ليس ذلك لغواً فإن معرفة الحقائق هى العلم ، والعلم واجب ليس بلغو ، وأما قول من قال إن المتأخر استوفى ما تركه المتقدم فنسب إليه فهذا كلام الكسالى المخدوعين الذين لا يريدون أن يحققوا بدليل ما قاله سيديو ، وها نحن أولاء نرى الأمم ترسل رجالها لكشف القطبين ويضعون راية فى مكان الكشف ليثبتوا لهم السبق ، فلو أن أمة سكتته فيما بعد فرضاً لكان السابق هو الأولى بالفضل .

ومالنا نذهب بعيداً ونحن نرى أن كريستوف كولمب كاشف أمريكا لم تسم البلاد باسمه فهلا جعل الاسم مركبا مزجيا كبعلبك ومعد يكرب أو بختنصر فيقال كريستوفه كولمبه ! لم يكن ذلك لأنه كان ممن صحبه رجل يقال له (أمريكو) من عظماء فلورنسا فسافر من غير مشاورة كولمب . وخطر له أن يظهر أنه أول كاشف لأرض الدنيا الجديدة ، وأشاع فى إيطاليا ، وكتب رحلته ليحتال بها على اكتساب الشهرة ، جعلها لطيفة مرغوبا فيها ، وحكى الوقائع على وجه يستميل القارئ ، فاشتهرت البلاد باسم هذا الرجل كما هو الغالب . إن الغَاشّ يفلح ظاهراً ، ولكن البلاد وإن اشتهرت باسم صاحب الرحلة وهو أمريكو لم يكن له منها إلاّ اللفظ وَرَجعَ العلماء تلك الشهرة إلى الكاشف الحقيقى وهو كولمب ، والحق أحق أن يتبع مع أنه لم يعرف جميع أصقاعها وزاد غيره أضعافاً مضاعفة فى

الكشف ؛ فحجة القائلين إن المتوغل فى الكشف أحق باسم الاختراع حجة داحضة وكلام لغو ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . وإذا كان الحق يرجع لأهله فى أوربا أفلا يرجع لأهله فى الشرق ؟

يقول الله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ومن ثَمَّ فإنى أوجه همم العلماء والفضلاء من أمتنا أن يبينوا للناس أولاً أن أكثر الكشف منسوب كذبا للفرنجة . ثانيا أن رقاص الساعة ودوران الأرض والجاذبية كانت معروفة عند أسلافنا ورجال المعارف الذين أَشْرُفُ بالانتساب إليهم أولى بهذا التنبيه وأحق به وأهله .

سادتى . . هل لكم أن أقص عليكم ثلاثة أنباء فى الاكتشاف:نبأ عن المرحوم على باشا مبارك بنفسه ، ونبآن عن أستاذنا المرحوم الشيخ حسن الطويل ؟

أما النبأ الأول فذلك هو الخاص ببحيرة فيكتوريا نيانزا ، وذلك أن المرحوم (على مبارك باشا) ناظر المعارف العمومية كان كثير العناية بطلبة دار العلوم ؛ لأنه هو الذى أسس المدرسة ؛ وبينما كنت جالسا فى الفصل وقد كان يمتحننى أستاذى إسماعيل بك رأفت فى الجغرافيا آخر السنة الأولى إذ دخل الوزير رحمة الله عليه ، فسألنى عن منبع النيل . فقلت : بحيرة فيكتوريا نيانزا ؛ فقال : ألم يكشفها العرب ؟ فقلت : كلا ، قال : بل كشفوها . وعندى مساحتها بالحبة والدانق والقيراط فى كتاب بخط اليد ! فقلت : إذن لماذا يقال : إن كاشفها الإنجليز؟ فقال : أمرونا فكتبنا !

أما النبأ الثانى فذلك رسم المنحنيات : قال لنا أستاذنا المرحوم الشيخ حسن الطويل : جلست مع وزير المعارف على باشا مبارك فأخذ يذم القدماء من المهندسين المسلمين ويقول إن كتبهم عقيمة سقيمة ! فقلت : لماذا؟فقال : كانت عندى رسالة فى فن رسم المنحنيات مخطوطة باليد . ولما لم أفهمها وجاءنى رجل فرنسى وأريتها إياه طلبها فأعطيتها إياه منذ عشر سنين ، فأرسل اليوم هذا الكتاب الضخم فى رسم المنحنيات بالفرنسية فقال : إن ما فيه هو مكبر ما فى تلك الرسالة الصغيرة ! فقال أستاذنا الطويل : يا باشا ، كانوا يؤلفون للمهندسين !

أما النبأ الثالث فهو الكتابة بالفضة على الزجاج ، وذلك أننا ونحن فى السنة الأولى من سنى دار العلوم جاءنا رجل أفرنجى وأخذ يحضر عقاقير لإحداث آثار الفضة على الزجاج مدعيا أنه الكاشف له . وحضرنا جميعا عمليته ، فلما كان اليوم الثانى أخبرنا المرحوم أستاذنا الشيخ حسن الطويل أنه أخذ الشيخ (محمد) الإبيارى والأستاذ أحمد الأزهرى بك وأراهما ليلاً صاحباً له مصريا يعرف هذه الصنعة عن أجداده ، ووصف لهم نفس العملية التى وصفها الإفرنجى وقال : إنه كان فى زمن شبابه يكسب منها أكثر من هذا الزمان الذى كسدت فيه هذه الصناعة .

وعند ذلك قال لنا شيخنا فى الدرس : كيف يأخذ هذا الرجل سبعين جنيها من الحكومة مكافأة على عمله وهو مبطل فى دعواه ؟ وكيف تنطلى تلك الحيلة على وزير المعارف ؟ وكيف يجهل الوزير الصناعة فى بلاده ؟ وكيف يجهل ذلك ناظر المدرسة إبراهيم بك مصطفى وهو ما أخذ الشهرة والبيكوية إلاّ بعلم الكيمياء ؟

هذا وإنى مستعد أن ألقى محاضرات عامة لطلبة المدارس العالية فى علوم أسلافهم ألا وإن فى البلاد من يريدون أن يصدوكم عما كنزه لكم آباؤكم ، ولن يكون هذا إلاّ وصمة فى تاريخ بلادنا العزيزة المجيدة ، ولى أشد الرجاء من إخوانى رجال المعارف أن يبينوا ما ظهر أن العرب كشفوه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

عن العددين ٦٨ و ٦٩ السنة الثانية من
« النشرة الاقتصادية المصرية » بتاريخ
١٦ و ٢٣ من مايو ١٩٢٢

مذهب السوفسطائية

قال اليعقوبى فى تاريخه (ص ١٦٦ ج ١) : وتفسير هذا الاسم (السوفسطائية) باليونانية « المغالطة » وبالعربية « التناقضية » يقولون لا علم ولا معلوم . إلخ) وقد تعقبه الأستاذ (سنتيلانه) وخطأه فقال : « السوفسطائية باليونانية معلمو الحكمة ، أو طالبو الحكمة »

وصوب كلام الشريف المرتضى فى الأتحاف (مجلد ٩ ص ٤١٨) إذ قال : « السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، و يزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وحقائق متميزة . فضلاً على اتصافها بالوجود . بل كلها أوهام لا أصل لها ، وسوفسطائية كلمة يونانية معناها طالب الحكمة » انتهى كلام الشريف الذى نقله الأستاذ سنتيلانه ، ثم قال :

والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة ، كانوا يجتازون المدن والأقطار يدعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا فى أقرب وقت مع أنهم أجمعوا أنه لا علم فى الحقيقة ، ولا حكمة ، وأن قصارى ما يدركه الإنسان من الوجود – على فرض وجوده – هو ما يدركه بحواسه الخمس ، ولما كان الإدراك الحسى مما يختلف بين الناس من إنسان لآخر ، بل فى الإنسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيراً مستمرا – لزم من ذلك أنه لا حق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ؛ ليستقيم به معاشهم ، ويكفى بعضهم شر بعض ، وهو نفسه أمر ليس بموجود طباعا ، ثم قال : وبعد إجماعهم على هذه الأصول اختلفوا : فذهب (بروتاغورس) إلى أنه ما ظهر لكل واحد حقا فهو حق بالنسبة إليه : فقال : إن الإنسان مقياس الأمور فى وجودها وفى عدم وجودها ، أى ما رآه كل واحد موجوداً فهو عنده موجود .

وما رآه معدوماً فهو بالقياس إليه معدوم ، ولا يتعدى الحكم إلى غيره .

وذهبت طائفة أخرى من أتباع (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء فى حكم التغيير الدائم – كان الإنسان غير متمكن من إدراك الحق بوجه ، وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه فى كل آن من ظواهر الأشياء لا يتعدى حكمه فيها إلى ما يدركه فى آن آخر . ولا يقول بوجود شىء البتة إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معاً لا طاقة للبشر عليها . قال : والمذهب الأول عند العرب يسمى مذهب (العندية) ، والمذهب الثانى (العنادية) . قال : وقد ألحقوا بهما مذهبا ثالثا ولكنه ليس من

السوفسطائية فى شيء ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصراً للإسكندر الرومى . ذهب إلى الشك المطلق ، وهو الإمساك عن الجزم بشيء أحق هو أم باطل ؟ ويسميه العرب بمذهب (اللا إرادية) . وإليهم أشار نصير الدين الطوسى فى حاشيته على المحصل (ص ٢٣) وذكر ما يقرب مما تقدم فلا نطيل فيه. فهاهنا خرج أهل البحث. من انحصار أفكارهم فى الماء أو الهواء أو أجزاء المادة .

وبعبارة أخرى أن هذه الطبقة – وهم السوفسطائية – أشبه بالجنين خرج من بطن أمه : فإذا كان من قبلهم قد حبسوا فى العناصر من ماء وهواء ونار وتراب ، أو فى أجزاء تلك العناصر – خرج هؤلاء من ذلك السجن المادى ، وقالوا : نحن لا نتقيد بقيد ما ! ثم قال : هذه هى فلسفة اليونان فى أواخر دهرها الأول ، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح : من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية ؛ وأخذ يدحض هذا المذهب . ومما قال : « وقد قيل : إن الشك يهدم نفسه » وذكر حكاية (ديوجانس الكلبى) أنه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها ، فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يتمشى فى المجلس ، ويضرب بعصاه الأرض إشعاراً منه بأن مثل هذا القول المنكر للظاهر لا يحتاج فى نقضه إلى بيان !

ثم نقل عن المتكلمين المسلمين فى كتبهم (أن هؤلاء الشاكين لا ينبغى مناظرتهم بل إحراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون) فيمكن التكلم معهم ، قاله الإمام الرازى فى المحصل . والشيخ التفتازانى فى شرح العقيدة النسفية . إلى هنا ينتهى كلام الأستاذ سنتيلانه . .

ثم إنى هنا لابد لى أن أنقل لقراء « المعرفة » الصحيحة المعارف ، كلام الأستاذ سنتيلانه بنصه وفصه ؛ لأنه فيلسوف أوروبى ليكون ذلك زجراً لهؤلاء المتعلمين فى الشرق الذين يرجع بعضهم من أوربا وهم إما دهريون وإما طبيعيون ، وإما سوفسطائية . وهم يجهلون ما عند أساتذتهم من العلم ، فيرجعون وهم غافلون . قال ما نصه بالحرف الواحد :

« أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها فهو لا يرضى العاقل المتبصر » كأنه يقول : نعم لا أنازع فى كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ؛ وإنما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها . فلو لم يكن هناك إلاّ مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول ؟ كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث – ليت شعرى ! كيف بقيت على تآلفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تفضى إلا إلى غاية الالتباس ، وعدم القياس ؟ هذا لعمرى كمثل من وضع حروف المعجم فى ظرف أو صندوق ، ثم جعل يحركها يوما فيوما طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أو رسالة

عميقة فى المنطق أو كتاب فى الهندسة دقيق ! أليس هذا من السفه المبين ؟ فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كده إلا على حروف ! فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الإتقان والإحكام وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض ، من حركات اتفاقية فى خلاء لانهاية له ؟ .

قال أرسطو طاليس فى كتاب « سمع الكيان » : (إن كل نظام يدل على وجود العقل ، وفضلا على هذا إن ما حصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلى عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة فى عالمنا إلى الثبوب ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شيء سواها فمن أين هذه القوى العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه وهى مع ما فيها من العجز والقصور من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية ، فوجود مثل هذه القوى يستدعى وجود جوهر عقلى يجانسها ويماثلها ويكون مركزاً لها ؟) ثم قال :

« وهل من المحتمل أن ما نشعر به من تصور المعقولات ، والكشف عن الكيان ، وتفريق القضايا ، وتركيب القياسات لم يكن فى نفس الأمر إلا من اضطكاك المادة بجزء آخر ؟ وهل يسوغ فى العقل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، وما فتنت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان أصله من تلك الأجزاء ؟

هنالك سلم اليونانيون من هذه الحيرة فلا العناصر كالماء والهواء أصل الوجود ، ولا الجزء الذى لا يتجزأ ، ولا مذهب الشك ، أو العندية ، أو العنادية — تغنى فتيلا عن معرفة الحقائق .

عن « مجلة المعرفة » الجزء الثانى السنة الأولى
الصادر فى الأول من يونية عام ١٩٣١

فى الفلسفة العربية

جبلت النفوس على حب الاستطلاع ، وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة ، وشاقها ذلك السقف المرفوع المزين بالنجوم المتلألئة المختلفة الأشكال الجميلة الألوان السارة للنظارين .

ثم راعها ما على الأرض من زينة وجمال ، من أنهار جاريات ، وبحار واسعات ، ومعادن نافعات ، ونبات متسق الأوراق بديع الأزهار ، يانع الأثمار ، زين الأرض بمحاسنه ، وذوقها بأنيق بدائعه ، عاش به الإنسان والحيوان ، فكان منه غذاؤهما ودواؤهما وبهجتهما ، وأودعه من الغرام به والشهوة له ما ساقها إلى السعى والبحث عنه كل حين .

الحيوان مكتف بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوى ووبر وشعر وصوف وأنياب محددة ومخالب قانصة وقوة جثمان وعدو سريع وإلهام يهدى إلى سبل المعاش .

أما الإنسان فإنه خلق عارياً كثير الحاجات ، يسعى لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره ، فضعفه ظاهر ، ووهنه حاضر .

لذلك اقتضت الحكمة أن يمتاز بالعقل ، فيسعى به لمآربه من الغذاء والدواء واللباس والمسكن والتعليم والتهذيب والمعاشرة ونظام الجمعية الإنسانية . فما أكثر حاجة الإنسان ! وما أحوجه إلى العلم والمعرفة ! وما أقل حاجة الحيوان ! وما أحراه بالحرمان من معارف الإنسان !

إن النتائج تتبع المقدمات ، والثمار على حسب النبات : فمن كفاه غيره السعى والطلب عاش خاملا ومات جاهلا ، ومن قام بأمر نفسه وسعى لها سعيها أكسبها قوة وأنالها حرية كانت حريَّة بالإجلال والإعظام . هذه هى المزية التى اختص بها الإنسان وبها سعادته . ألا ترى أن كمال كل شىء فيما اختص به ؟ فالفرس كماله فى العدو السريع ، وأنه إذا عجز عن ذلك نزل إلى مرتبة الحمير وعومل معاملتها فى الحمل والأعمال الخاصة بها ! هكذا السيف : كماله أن يكون صارماً سريع القطع ، فإن نزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ونبذه الشجعان ، وخرج من الميدان !

هكذا الإنسان : لم يمتز إلا بالعقل والعلم ، فإذا ما كان غافلا نزل إلى رُتبة أدنى من الحيوان ، أولئك كالأنعام بل هم أضل منها ؛ لأنها كاملة فى ذاتها لقيامها بما يناسبها ، فإذا انحط إليها الإنسان وشاركها فى منازلها فهو فى خسران مبين !

إن الفطرة الإنسانية شاهدة بما قلناه فإنه – وإن نال الإنسان ما يبتغيه من المال وما يحب من الجاه – ولا يفتأ يفرح بحلو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء ، ويشتاق لذلك ، ويحرص عليه ! ولقد نرى أكثر الناس جهلاً وأبعدهم عن العلم مجلساً إذا عُيروا بالجهل عدوه إثما عظيماً وناءوا مَنْ عيَّرهم وشاكسوه ؛ ذلك لأن فطرهم شاهدة أن كمالهم بالمعرفة ونقصهم بالجهل .

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله ليعرف أسباب الأشياء ومسبباتها ، كل ذلك شواهد ناطقة على ما قررناه ، وترى جميع الناس فى مشارق الأرض ومغاربها من أى دين أو نحلة يجلون العظماء ، ويعظمون الحكماء وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين لما ركز فى طبائعهم ووقر فى نفوسهم من شرف العلم وجماله واختصاصه بالإنسان .

تطابقت فطرة الإنسان وحاجته ؛ فكماله النفسى بالعلم وسعادته فى الحياة بالعلم . ونظر الإنسان فرأى فى نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة ، فاحتال فى تهذيبها ، وجدّ فى تكميلها ، فكان علم الأخلاق . ثم رأى زوجا وولداً وخدماً ، فكانت سياسة المنزل ، ثم كان اجتماع أهل المدينة ، وكان لابد لهم من نظام وقوانين وأحكام ، فكانت سياسة المدنية .

قرأت الأمم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والمعاملات ، ثم الطبيعة لتستخرج بها ما فى الأرض من منافع ، ونظرت فى العوالم فأقرت بإلاه نظمها وحكيم أبدعها .

أهل المدنية كلما كانوا بالعلم مغرمين ، وعلى الفضيلة عاكفين – كملت مدنيتهم وازدادت سطوتهم ، وكلما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المصير !

وأقدم أمة عرفها التاريخ فى الحكمة قدماء المصريين ، وهكذا السريانيون ، وقام على آثارهم الكلدانيون ثم الفرس واليونان ، وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل : سقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذه أرسطو . ولقد كان هذا أرسخهم فى العلوم ، ولذلك يسمى « المعلم الأول »

ولما انقرض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة نالوا من حكمة اليونان حظا عظيما ونبغ فيهم نابغون مثل سنيكا وشيشرون ، ولما تنصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبها فى خزائنهم ، ثم جاء الإسلام وظهر أهله عليهم وامتد سلطانهم وعظمت شوكتهم ودانت لهم الأمم شرقا وغربا ، فاشرأبوا إلى ما نالته الأمم السابقة من روائع الحكمة وبدائع العلم والإحاطة بما فى هذا الوجود على ما يقتضيه العمران ويتطلبه الملك وتعظم به الدولة ، وكان خالد بن يزيد بن معاوية – ويسمى حكيم آل مروان – رجلاً فاضلاً محبا للعلوم فأحضر جماعة من الفلاسفة ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة وغيرها من اليونانى إلى العربى ، وهذا أول نقل فى الإسلام .

ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الأموية ودانت لها البلاد واستتب الملك أرسل أبو جعفر

المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة ، فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون وفهموها وزادوا حرصا وشوقا إلى علوم الحكمة ، كما روى « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » .

فلما كانت أيام المأمون وقد كان أُشْرِبَ قلبه حب العلم وأغرم بالحكمة أرسل إلى ملك الروم فى استخراج علوم اليونانيين واستنساخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك ، فترجموا منها الكثير وتلقاها النظار من أهل الإسلام بالقبول وعكفوا عليها ونبغوا فى فنونها ، ولقد خالفوا المعلم الأول فى كثير من المسائل وردوا عليه ، ودونوا فى ذلك الدواوين وكثرت التآليف .

ثم إن العلماء الذين ترجموا الكتب للمأمون كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة جاءت كتبهم متخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة ، ولم توافق ترجمة واحد منهم الآخر ، فبقيت إلى زمن منصور بن نوح السامانى ، فالتمس من أبى نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة ، فأجاب الفارابى وفعل كما تقتضيه ، وسمى كتابه بالتعليم الثانى ؛ فلذلك لقب بالمعلم الثانى وبقى هذا فى خزانة المنصور إلى زمن السلطان مسعود من حفدة منصور بن نوح .

وكانت تلك الخزانة بأصفهان وتسمى بصيوان الحكمة ، وكان الشيخ أبو على الحسين بن عبد الله ابن سينا الطبيب الفيلسوف المولود سنة ٣٧٥ هـ والمتوفى سنة ٤٢٨ هـ (سنة ١٠٣٦م) وزير المسعود — كان قد تقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم إليه خزانة الكتب ، فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد بينها التعليم الثانى ، ولخص منها كتاب « الشفاء » ثم إن الخزانة أصابتها آفة فاحترقت ، وقد اتهم بعض الناس الرئيس بأنه أحرق الكتب لئلا يطلع الناس على الحكمة التى نقل عنها . وهذا باطل لما يرى فى كتاب الشفاء من تصريحه بأنه تلخيص « التعليم الثانى » .

ومن الحكماء فى هذه الأمة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى الفيلسوف من أمراء بنى كندة ، وكان من المكرمين لدى الخلفاء من المأمون إلى المتوكل ، ولد سنة ٢٤٠ فى البصرة ثم سكن بغداد واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وبتأليف كتب فى الفلسفة والرياضيات والطب والهيئة والموسيقى ، وعدد مؤلفاته ٢٦٥ ، وأكثرها ضائع الآن . .

ومن المترجمين البطريق فى أيام المنصور بن يحيى الذى نقل المجسطى وإقليدس للمأمون وحسين بن بهريق الذى فسّر للمأمون عدة كتب ، وكثير غيرهم : هؤلاء فى المشرق ، أما فى المغرب فكان القاضى أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، فهؤلاء نشروا كتبهم فارتقت الدولة واستبحر العمران حتى إذا تغير الزمان وقلب ظهر المجن وذهبت الدولة نادى ابن خلدون فى مقدمته

بالويل والثبور وقال : أيها الناس ، لا تغفلوا عن الصناعات والعلوم فقد ركدت ريح مدنيتكم وخرّ عليكم السقف من فوقكم فأصبحتم من الخامدين !

ولما افتتح الترك القسطنطينية وقد نالوا حظا وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحكمة على المسلمين ، فمالت شمس الحضارة هناك إلى الغروب ، ونادى عالمهم ملا كاتب جلبي المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى بالويل والثبور ، وقال ما ملخصه : « ولما حل أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم ، وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكمل ، فاندرست العلوم بأسرها إلاّ قليلا من رسومها ، فكان المولى المذكور سببا لانقراض العلوم من الروم ، كما قال العلامة شهاب الدين الخفاجى فى خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة . »

فانظر كيف شكا علماء العرب والترك قديما من الجهالة العمياء والداهية الدهماء الحالّة بالأمم الإسلامية من ترك العلوم الفلسفية !

عن « مجلة المعرفة » الجزء الثالث – السنة الأولى – الأول من يوليو سنة ١٩٣١

من الشرق إلى الغرب

الإنسان نوع واحد من أب وأم ، فأصبح شعوبا وقبائل ، فتكاثروا أفخاذاً وعشائر لتزداد السعادة ويتم الهناء فى الأمم والأفراد.انتشروا فى الأرض شرقا وغرباً ، فكانوا شرقيين وغربيين . الشرق أب ، والغرب ابنه ، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء . أما الديانات فكلها شرقية ؛ إذ فيها البوذية والكونفوشيوسية ، واليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . زحف من الغرب إلى الشرق اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل وبعد ميلاد المسيح . واقتسموا السلطة هم والفرس فى الشرق الأدنى وهم غاصبون . هنالك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز ، لئن رميتنى بحجر لأرمينك بالتمر . لا تخرجُنَّ من دار أبيك إلاّ بعد أن أهديك الصراط المستقيم . وهل ذلك إلاّ قول المسيح عليه السلام . اعبدوا الله أيها الأبناء ، وأفشوا فى الأرض السلام . لا سلاح، لا قتال ، لا جدال ، كونوا عباد الله إخوانا ؟

وهل سبب ذلك إلاّ أنه رآهم يعبدون غير الله ؟ فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، والفرنسيون كانت تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين . والإنجليز كانوا يسجدون للصخور والحجارة ولمنابع المياه . فأما أستوريا (النمسا) وبروسيا (ألمانيا) والروسيا وإسبانيا والبرتغال وهولندة والدانمارك والسويد والنرويج وسويسرا فإن دينهم القديم دين من ذكرناهم أولاً حذو القُذَّة بالقذة . فلما رآهم على هذه الحال دعاهم إلى عبادة الله وإلى السلام ، فدخلوا فى الدين المسيحى أفواجا : ففرنسا سنة ٤٩٦ م وإيطاليا سنة ٥٠٠ م ، وإنجلترا سنة ٥٩٦ م ؛ ويقرب من هؤلاء فى التاريخ الإسبانيون والنمساويون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا ، ما عدا دولة الروسيا ؛ فإنها لم تدخل إلا فى نحو القرن العاشر الميلادى ، ولكن لما دخلوا المسيحية لم يعملوا بما علمه المسيح من السلام العام ؛ إذ افقوا فى الشرق ، وازداد ظلم الرومان للشرقيين فلم كان هذا ؟ ظهر نبى عربى فى صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح :

أفشوا السلام ، وأديموا الصيام ، وصلوا بالليل والناس نيام – تدخلوا جنة ربكم بسلام . ودعاكم إلى الإسلام والسلام العام ، واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة ؛ لأن المسيح قبله لم يخضد من شوكتهم ، ولم يعملوا بنصائحه فى السلام ، ليتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لهم معلمون .

لم تمض على امتشاق الحسام الإسلامى عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها ، وتركوا الشرق إلى أهله ؛ إذن الإسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية بسلام أهل الأرض . فسلام المسيح عقائد ، وسلام الإسلام عقائد وأعمال ! هنالك أخذ النور يمتد فى الشرق ، والظلام يعم فى الغرب ، واستبد البابوية الرومانيون ، وقتلوا وأحرقوا بالنار ألوفا وأذلوا ملوكهم ، وأذاقوهم سوء العذاب . قال المسيح لهم : « طوبى للرحماء فإنهم يرحمون » ، « طوبى لصانعى السلام فإنهم أحباب الله يدعون » فخالفوا قوله : ففى سنة ٧٨٢ م قبض شرلمان بإيعاذ إينوشسيون الحبر الرومانى على أربعة آلاف سكسونى فى مدينة « واردن » وضرب أعناقهم فى يوم واحد ؛ لأنهم أبوا قبول العماد ! وفى سنة ١٠٠٧ م أحرق فى مدينة « أورليا » جملة هراطقة وهم أحياء ، وتبع ذلك كثير من القتل والإحراق فى سنة ١١٢٤م وسنة ١١٥٥ م حتى عم الظلم والإهلاك والتدمير . وأسس ديوان التفتيش فى سنة ١١٨٢ م وصادق عليه البابا إينوشنسيوس الثالث وثبته البابا « غريغوريوس » وتسلم « دومينيكوس » ورهبان إدارته وسودوا صفحات التاريخ بإحراق وقتل الملايين من الناس !

هنالك ساقهم العناية الإلهية إلى الشرق ، كما ساقهم فى المرة الأولى التى فيها اعتنقوا دين المسيح ؛ لأن فى الشرق نوراً إسلاميا متى أشرق على ربوعهم قل ذلك الظلام ، إن الله هو الذى رحمهم بانبعاث نفوس رجال الدين إلى إغرائهم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة ، فأثاروا الحروب الصليبية ودام الصراع نحو ٢٠٠ سنة ، فرجعوا يحملون فى صدورهم نور العلم والإصلاح ، والحرية والإخاء ، بسبب معاشرة أهل الإسلام ، فلم يملكوا الأماكن المقدسة ، ولا بلاد الشرق ، ولكن ملكوا ناحية السيادة ، وانتزعوها من رجال الدين الذين أغروهم بمحاربة الشرقيين ، فكانت الهزيمة لأولئك الباباوات الذين هم فى الحقيقة الجانون على الدين ، لا الشرقيون .

ورجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلا حجة ، فأراد الله انتقاص سلطتهم بالعدل ، فكان الإغراء بالانتقام راجعا إليهم « إن ربى على صراط مستقيم » [1]

فهل ظهر فيهم « لوثر » المصلح العظيم وفولتير وروسو ، وأضرابهم إلاّ بعد اطلاعهم على كتب منقولة فى تعاليم الإسلام « وأمرهم شورى بينهم » ألم يقل سديو الفرنسى فى كتابه « تاريخ العرب » : إن اللاتينيين استمدوا العلوم الفلكية الأولية من العرب ؛ فإن جوبرت الذى كان بابا رومية الملقب بسلوستور الثانى أدخل من سنة ٩٧٠م إلى سنة ٩٨٠ م عند الإفرنج العلوم الرياضية ، التى كسبها عن عرب إسبانيا وادهيلارد الإنجليزى ساح من سنة ١١١٠ – ١١٢٠ م فى كل من إسبانيا ومصر وترجم مبادئ إقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية ، وهكذا سارت أمم أوربا وعلماؤها

---

(١) هود : ٥٦ .

مثل الخواجا رودلف من أهالى « بروجس » البلجيكية ؛ إذ ترجم مسائل بطليموس فى الفلك ، و « بتليون » البولندى ترجم كتاب « الخازن » فى علم « الضوء والمناظر » وهكذا كثير وكثير جداً .

هكذا هم أولاء اليوم رجعوا مرة ثالثة إلى الشرق ، بلا حجة إلاّ اهتضام حقوقه ، وإذلال الشرقيين . قبلوا مسيحيتنا منذ ١٤ قرنا ، ففى نصفها الأول لم يحسنوا استعمالها ، فكانوا بها قوما مستعبدين ، وأذلهم رجال الدين . وفى نصفها الآخر أشرقت عليهم أنوار إسلاميتنا فساروا إلى الأمام ، نحن الآباء وهم الأبناء . بعلومنا ودياناتنا ارتقوا فهل نصيب الأب من ابنه أن تكون الخيانة ، والوصاية الجاهلة ، والجشع الغشوم ، والاستبداد والاستعمار ؟ أغضبتم الإنسانية أيها الغربيون « إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدئ ويعيد » [١] « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » [٢] وما مثلكم فى ذلك إلاّ كمثل النمل ، إذ تحارب جيوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كد المغلوبين ، فينقرض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان ؛ فأنتم فى ذلك كالنمل أو كدولة الرومان !

ها نحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا . وبينكم فى أيامنا هذه . فألفينا عهودنا مع الضعفاء محفوظة ، فأما أنتم فلا عهد لكم مع الضعفاء !

فها كم أيها الأبناء ما جاء فى كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » تحت عنوان « جندى سابور » :

روى الطبرى أن أبا حبرة لما فرغ من « السوس » خرج من جنده حتى نزل على جندى سابور وزر ابن عبد الله بن كليب ، فحاصرهم ، فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال . فلم يفجأهم يوماً إلاّ وأبواب البلد تفتح ، ثم خرج الناس وخرج من فى الأسواق . فأنبث أهلها ، فحار المسلمون فى ذلك ، وأرسلوا فسألوهم أنْ مالكم ؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان ، وأقررنا لكم بالجزية ، على أن تمنعونا ؛ فقال المسلمون : ما فعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا فسأل المسلمون فيما بينهم فإذا عبد يسمى « مكنيفا » كان أصله منها هو الذى كتب لهم . فقالوا : إنما هو عبْد ، فقالوا : إنا لا نعرف حركم من عبدكم ، فقد جاءنا أمان ، فنحن عليه قد قبلنا ، ولم نبدل ، فإن شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : « إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا ، ما دمتم فى شك أجيروهم وأوفوا لهم ؛ فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » .

أليس هذا تاريخنا وتاريخكم ، وفينا بعهد عبد لنا ، ولم تفوا بعهود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الإنسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الإخوة الغربيون ، الدهر قلب . وتلك الأيام نداولها بين الناس . والشرق هو الشرق ، وقديما

---

(١) البروج : ١٢ ، ١٣ .

(٢) الدخان : ١٦ .

هجمت عليكم أمم قبل التاريخ المسيحى ، فأهلكوا الحرث والنسل . ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبعة قرون . ولايزال أعقاب التتار فى بلاد النمسا إلى الآن ، وها هم أولاء التتار المسلمون فى قلب روسيا المسيحية . أليس هؤلاء أمماً شرقية . حذار ، حذار أيها الغربيون ؛ إن فلاسفتكم ، وكبار علمائكم — يعلمون أن عملكم عاقبته خسران لكم ، ولكنكم لا تحبون الناصحين ؛ لأن العامة يسوقون نوابكم إلى مزاولة الشهوات الحاضرة الزائلة ، وأعينهم فى غطاء ، والجهل يطمس على أبصارهم ، فلا يدركون سر العواقب ، فهل ترضون أيها السواس أن تكونوا أسرى العامة تابعين لأهوائهم ؟ ألا ساء ما تفعلون ، شر الشرق أبدى ناجذيه لكم . آن وقت الحساب . واستيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ، ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب . فأسرع الزرع فى نمائه .

احذروا غضبة الشرقيين . اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان مع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تعقلون ؟ أفلا تنظرون ! فياليت شعرى ! من ذا الذى يصد ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ؟ ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أو الهواء عن مسراه ؟ . . إذا خطر لكم ذلك ، فأهون به خاطراً وما أضل هواه !

مجلة « المعرفة » الجزء الرابع ، السنة
الأولى — الأول من أغسطس سنة ١٩٣١

القضاء والقدر

لهج الناس فى كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ، ويقولون : إن الله يقول « إنا كل شىء خلقناه بقدر » [1] وإذا كان كذلك فلم العذاب ؟ ولم العقاب والعتاب ؟ – ثم إنه رحمان رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين ؟ وأين السعادة للمظلومين ولمن هم فى عذاب الجحيم ؟

هذه حال الإنسان على أى ملة كان ، وأى دين فى مشارق الأرض ومغاربها : حيرة لا حد لمداها ، وأسئلة لا جواب عنها إلاّ من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكون نوع الإنسان أشبه بالعين .

هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ، فهاك أيها الذكى فاستمع ما ألقيه الساعة إليك بقلب صاف ونفس واعية ، وتدبر ، فإنه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة فى القلب شفاء وكن من المستبصرين .

لأضرب لك أولاً مثلاً برجل مهندس عبقرى فى الهندسة ، عزم على أن يبنى بيتاً – وهو بأنواع البيوت عليم – ففكر فى صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها فى نفسه ، واصطفاها لمسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناه وشاده على أحسن منوال وأجمل مثال ، وفى البيت فُرُشٌ مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان ، تقر به عيون الناظرين ، ويسر بمرآه جمهور الزائرين ، فدخل البيت زائرون : منهم العميان ومنهم المبصرون.ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا فى البيت كما يشاءون ، ويتفرجوا بفرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون .

فانطلق أحد العميان فى المنزل ، فاصطدم فى أرض الحجرات والأرائك ، فخر على الأرض كالصريع ، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات ، فأدمت أنفه ، وما كاد يمسحه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله فى المرحاض ، فقعد حزينا كئيبا ، وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف خاب ظنى فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟

ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر ، فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن

---

(١) القمر : ٤٩ .

الإتقان ، ففرح أشد الفرح وقال : هذا هو النظام ، وهذه هى الرحمة والإحسان .

هذا أيها الذكى هو المثل الذى ضربته لبيان هذا المقام .

إن علم المهندس بنظام البيوت واصطفاءه منها واحداً هو أجملها ، ضَرْب مثل للقضاء : فالقضاء راجع لما ثبت فى العلم القديم للمكونات . **وإبراز البيت على ما قدره المهندس** فى نفسه على أحسن منوال ، ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ما سبق به العلم القديم .

والعميان ضرب مثل لجميع الجهلاء على أى دين كانوا ، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعليماً ناقصاً فى مدارس الشرق والغرب أجمعين .

والمبصرون ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم ، وزكت نفوسهم واشتد شوقهم للعلم والبحث ، فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بمالا يعرفون .

فدرسوا هذه الدنيا دراسه متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات ، وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ويكلمونهم بما يعقلون – وسعدوا سعادة لا حد لمداها ، وكانوا من الفائزين ، وهؤلاء يقال لهم « يأيتها النفس المطئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . فإذا سمعوهم يتحدثون فى القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء ليس لامرئ أن يقصر فى عمله محتجا بالقضاء ، فتلك حجة الكسالى الغافلين ، فإذا ما أتمه على حقيقته واجتاحته الجوائح فهنالك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين .

إن هذه المسأله ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوة : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » فرد الله عليهم مهدداً بالوعيد فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » [٢]

ونقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى : هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون فى القضاء والقدر وهم جاهلون .

إن الأمم التى فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هى التى استعدت للفناء وباءت بالوبال ونسيت عقولها وعدتها حملاً ثقيلا عليها ، لأنهم على الشهوات عاكفون . وفى غمرة الجهالة

---

(١) الأنعام : ١٤٨ .

(٢) الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩ .

ساهون ، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ؟ وأنّى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال فى الفتيات والفتيان ؟

إن المسلم الذى شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها لحرى به أن يبوء بالخسران ؛ فهذه الطائفة فى الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون فى أماكن الشرب العامة ببلادنا المصرية ، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها ، وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم ، فهم فى ذلك مغرورون !

إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكماء محققون ، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون : فالفريقان الأولان مطمئنون ، والفريق الثالث جعلته حيرته مهازا يسوقه إلى البحث ، فإذا قصر فهو فى ضلال مبين .

وكيف يخوض فى القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ، وأن فى كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات -- وهى الطبقات السبع : طبقة تسمى الشبكية وهى لا تزيد فى سمكها على سمك ورقة الكتابة وهذه حدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون أسطوانة وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسى واضحة . وبهذه الملايين يكون الإحساس والنظر ؟

بعد كتابة ما تقدم فى هذا المقال وجه إلى أحد الأصدقاء اعتراضاً جاء فيه ما يأتى :

إن هناك فرقا بين المثل والممثل له : فإن المهندس رب البيت ليس مسئولاً عن العمى ؛ فليس من حق الأعمى الذى حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له : لم كنتُ أعمى ؟ لأن المهندس لا سلطان له على عين الأعمى ، ولكن الممثل له غير ذلك ؛ فإن الذى أصبح متشككا متحيراً هو نفسه من صنع الله ، وإذن فالإشكال باق والمسألة على حالها والمثال لا يجدينا نفعاً ، فأمن الحاضرون على كلامه ، وسكت قليلا ، ثم تبسمت وقلت : لا إشكال ، لا إشكال ! فقال الحاضرون : أين أين البرهان؟فقلت : هناك أسرتان ، أسرة كبيرة وهى نوع الإنسان ، وأسرة صغيرة وهى المعروفة ، ألستم ترون فى الأسرة الصغيرة أن صاحب المنزل هو الذى يديره وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه فى الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج؟قالوا : نعم . قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللاً وظلما؟قالواكلا ، بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة ؛ فقلت : إن العامة فى العالم الإنسانى يمثل لهم بالخدم ؛ لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا . وأما رب البيت فهو ضرب ممثل بصانع العالم ، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا ، وفكروا فى نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الإنسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم . والمتعلمون نصف تعليم هم حكماء الأمم ،

فهؤلاء إذا أحسّوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة ، لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ، فإذا كسلوا وناموا كما هى الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فإنهم لا جرم يحيون حياة كلها اضطراب ، ويرجعون القهقرى ، وتكون الشهوات سلوتهم الوحدة وهذا هو السر فى تأخر بعض أمم الشرق التى كثر العلم فيها ، ولكن لا استقلال لها لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمى غير مكين ، فهل وجود أطفال الأمم خلل فى النظام ؛ قالوا : كلا لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا ؛ قلت : إذن العميان فى مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالاً أو مآلاً عدل وحكمة وكمال ؛ فقالوا : نعم ، فقلت : الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة .

مجلة « المعرفة »
الجزء السابع – السنة الأولى
شهر نوفبر عام ١٩٣١
ص ٨٧٣ – ٨٧٥

فى الخلافة الإسلامية

مبحث الخلافة الإسلامية مبحث مهم من المباحث العلمية الإسلامية ، وكل علم لا يعرف الناس أدوار تاريخه ، إنما هو فى دراستهم له وأحكامهم فيه أشبه شيء بمن يبنى بيته على شفا جرف هار ، أو بمن يستسمن ذا ورم وينفخ فى غير ضرم !

إن الخلافة الإسلامية فى الأعصر الغابرة قامت بدور عظيم مهم وشغلت أمم الإسلام قاطبة ، وتفرقوا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ما عودهم الآباء :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ماكان عوده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل يتسنى لطفل تربى على مذهب خاص فى أمر الخلافة أن يفكر فى القرآن وفى الإجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لطريقته لا يتعداها ، جامداً عليها لا يتخطاها . إن أكثر نوع الإنسان فى الأرض مقلدون ، جمدت القرائح وتعارضت الظنون ، ووقفت الحركة العلمية الإصلاحية فى جميع الشئون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصابت الصاعقة ، وأحاطت بنا الأمم – وهم من كل حدب ينسلون – أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا أيها المسلمون أنثر عليكم نبأ الخلافة ، وأبدى رأياً مجملاً يقبل التفصيل والتحوير .

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأى فيه إلا بالبحث فى أحوال الخلفاء والسابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملاً بقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقوله تعالى « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون »[1] .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى موجهة للمصلحة العامة بإخلاص تصبح خدمة عامة لا ينتطح فى أمرها عنزان ، ولا يرثها الأبناء عن الآباء ، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سوء تنقلب فى أيدى الجهال وتأبى أن ينالها الأبطال : توفى رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فعمر فعثمان فعلى رضى الله عنه . درسنا مجمل اخلاق الخلفاء الراشدين ، فلم نجد أبا بكر وصى بها لابنه ،واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم نر أحداً منهم استكثر من الأموال واتبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة فى

(١) الأعراف : ١٠٠ .

الإسلام ، إن أمر الخلافة شورى بين المسلمين « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

مضى عصر الراشدين ، وتولاها الأمويون وأولهم معاوية ، فاستبدوا بالأمر ، فقاومهم بنو هاشم ففتك بهم الأمويون فتكا ذريعا ، ثم اشتد العباسيون والعلويون فى مقاومة الأمويين ، وساعدهم شيعتهم الفارسيون وبطلهم أبو مسلم الخراسانى . وأكثروا من موضوعات الأحاديث ، وما كاد الأمر يتم للعباسيين حتى قلبوا ظهر المجن للعلويين وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، وقتل المنصور محمد بن عبد الله ، وهو الخليفة الحقيق صاحب البيعة الصحيحة !

هنالك أصبح الخليفة العباسى بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمن وأبناء عمه العباسيين بالشمال . بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعتهم غدراً كأبى مسلم الخراسانى وجعفر البرمكى وغيرهما كثير . ولقد تغالى العباسيون فى إذلال العرب كما تغالى بنو أمية فى إعلاء شأنهم على غيرهم ، وما قاله إبراهيم الإمام لا يرده مسلم « من ترددت فى أمره فاقتله » وحرضه على قتل العرب فقتل منهم ٦٠٠ ألف رجل غدراً وهم آمنون .

مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون وأم الأول عربية وأم الآخر فارسية ، فنصر الفرس ابن أختهم وشردوا العرب كل مشرد وأذلوهم ، ومنعهم المعتصم العطاء.ولما كانت أم المعتصم تركية من بلاد الصغد أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هنالك أصبحت الخلافة فى العباسيين اسماً بلا مسمى ، وتنازع القواد من غير العرب الرياسة وصار الخلفاء آلات صماء فى أيديهم ، فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ ، وسملوا أعين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدى التتار ، وكل ما حصل للعباسيين تم نظيره فى الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بجيرانهم من الإسبان على إخوانهم ، فيهلك الفريقان ، فربما كانوا يقتلون المستجير بهم غدراً ؛ كما حصل لجندل بن حمود أمير أشبيلية إذ وعده البابا ودوق فينزيا وبعض دوقات أوربا أن يكون ملك الأندلس كلها إذا ساعدهم فى فتح قرطبة ، فبر بوعده لهم فقتلوه غدراً وخربوا أشبيلية !

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وما يتبعها من الإمارات فى الإسلام ، وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها فى القرآن . والذى أراه :

أولا – أنه يجب على كل أمة – عربية أو غير عربية – أن تمنح التعليم للذكور والإناث بقدر الإمكان .

ثانيا – يجتمع أمراء الإسلام المفوضون من أممهم فى أمر الخلافة ، لينتخبوا أميراً منهم لها ، على شريطة ألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم من صلح أو حرب أو غيرهما كما يفعل الخلفاء .

ثالثا – أن يكون الانتخاب لسنين محدودة أو لمدة الحياة ، فإذا انقضت المدة فى الحال الأولى أو مات فى الأخرى ، فلينتخبوا سواه بالشورى ، فإذا أعيد انتخابه فى الحالة الأولى قلد ذلك .

رابعا – يجب أن يراعى فى الخليفة أمران مهمان وهما : (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الأمراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا فى الترجيح إذا تعارض أميران واستوفيا ما ذكرناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

خامساً – كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لا حق له فى تولى أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأى من فوقه ؛ وهذا ضار بالمسلمين .

سادساً – إذا تعذر الاجتماع فى هذا الزمان – لضعف أو افتراق كلمة – فليتربص المسلمون الوقت المناسب .

فأما الخلافة الضعيفة التى يتولاها من لا يحوز هذه الثقة فما هى إلا شبكة صائدين ، وحيلة محتالين ! فهل المسلمون عقار يتناوله الأبناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالأولى لخلفائهم مصطفين ، ولهم مشيرين ، وعلى أعمالهم شاهدين ، ولاعوجاجهم مقومين .

هذا ما أراه فى شأن الخلافة وفوق كل ذى علم عليم .

مجلة « المعرفة » الجزء التاسع
السنة الأولى – الأول من يناير عام ١٩٣٢

العلوم الرياضية عند قدماء المصريين:

هل هى خالية من السحر؟

قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد فؤاد الأهوانى مدرس الفلسفة بالمدارس الأميرية فى مجلة « المعرفة » عدد شهر يونيو سنة ١٩٣٢ تحت عنوان « فلسفة العلوم الرياضية » وقد راقنى هذا المبحث الجليل وحفزنى إلى كتابة هذا المقال :

إن معرفة تاريخ العلم لها أكبر الأثر فى الأمم ، وكل علم جهل تاريخه عند قارئيه فهو أبتر ، لا يورى ناراً ، ولا ينفع جارا ، ولا يدفع عاراً ؛ فلله در من يفتحون هذا الباب للأمة المصرية كالأستاذ الأهوانى. ولكنى لما قرأت فى هذا المقال ما ملخصه : إن المصريين أول من تكلموا عن الرياضة ، بصفة وصفية علمية ، وإن رياضتهم كانت خالية خلواً تاما من النظرة السحرية التى طغت على عقل الإنسان الأول كالأمة الإغريقية التى كانت مملوءة بالأفكار السحرية عن الأعداد – أقول لما قرأت ذلك تذكرت أن أستاذنا المرحوم (على مبارك باشا) مؤلف كتاب (خواص الأعداد) قد أثبت أن قدماء المصريين كانوا يستعملون الأعداد فى السحر ، فإذا كان الأستاذ الأهوانى قد أثبت ذلك عند غير قدماء المصريين فهاهو ذا مبارك باشا أكمل حلقة الأمم القديمة بالمصريين ، ويقول : هم بالأعداد ساحرون ! وكتابه (خواص الأعداد) المذكور مملوء بالجمال العلمى والمباحث العالية الشريفة ، وقد قال فى أول الكتاب : إن تلك المباحث اطلع عليها من الكتب الفرنسية ، وإن فيها كثيراً من خواص الأعداد ، وعلم الأوفاق ، وهذا بيت القصيد فى مقالنا . . إنه يقول : إن الجدول الوفقى عبارة عن مربع مقسم إلى عدة مربعات صغيرة متساوية ، تشتمل على حدود متوالية هندسية أو عددية من داخلها ، موضوعة على وجه بحيث يكون مجموع أعداد كل صف من الصفوف الأفقية أو الرأسية واحداً ، وكذلك فيما إذا جمعت أعداد كل صف من الصفوف المار بها قطر المربع الأكبر وفيما إذا كانت أعداد المربعات حدوداً متوالية عددية ، ومثاله هذا الجدول :

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

هذا جدول وفقى مركب من خانات فردية عددها ٢٥ ، وما فى داخلها من الأعداد هو ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ وهكذا إلى ٢٥ ، موضوع على الوجه المذكور فى التعريف ، بحيث لو جمع كل صف من صفوفه الرأسية أو الأفقية أو الصفين المار بهما قطر المربع الأكبر – لكان حاصل جمعه مساويا حاصل جمع أى صف من تلك الصفوف التى مجموع كل منها ٦٥ ، وخاصية هذا الجدول الوفقى الفردى هى أن حاصل جمع أى صف من صفوفه ، أو صف أى قطر من قطريه مساوٍ لحاصل ضرب جذر عدد الخانات ، وهو ٢٥ فى عدد ١٣ الذى هو وسط المتوالية ، والذى فى مربع تقاطع قطرى هذا الجدول ، أى فى الخانة الوسطى منه فإن جذر ٢٥ هو ٥ وبضربها فى ١٣ يتحصل ٦٥ ، وهو مجموع أى صف كما سبق ، وهكذا أخذ المؤلف يضع أوفاقا على هذا النمط ثلاثية ورباعية وخماسية إلى تساعية إلى أن قال فى صفحة ٥٦ ما نصه :

« هذه الجداول التى كان يعتنى بها المصريون ومن أخذ عنهم مثل فيثاغورس وجماعته – إنما سميت بجداول الأوفاق لنسبهم لها إلى الكواكب السبعة ؛ فإنهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة فى صور مختلفة ، وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن المؤتلف مع الكواكب ، وكانوا يجعلون جدول الوفق المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة عدد أضلاعه بقدر ما يشتمل عليه ضلع المربع من الوحدة (كذا) ، ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكواكب ومرسومة عليه أيضا فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة إشارات منطقة البروج ، وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معه .

وكيفية انتساب تلك الجداول إلى الكواكب هى أنهم كانوا يجعلون لزحل المربع المنقسم إلى تسع خانات جذر عددها ٣ ، ومجموع أعداد صفه ١٥ ، وإلى المشترى المربع المكون من ١٦ خانة جذرها ٤ ومجموع أعداد صفه ٣٤ ، وإلى المريخ المربع المركب من خمس وعشرين خانة وضلعه ٥ ومجموع أرقام صفه ٦٥ خانة ، وإلى الشمس المربع المكون من ٣٦ خانة وضلعه ٦ ومجموع أعداد صفه ١١١ ، وإلى الزهرة المربع المشتمل على ٤٩ خانة وضلعه ٧ ومجموع أعداد صفه ١٧٥ ، وإلى عطارد المربع المشتمل على ٦٤ خانة وضلعه ٨ ومجموع أعداد صفه ٢٦٠ ، وإلى القمر المربع المشتمل على ٨١ خانة وضلعه ٩ ومجموع أعداد صفه ٣٦٩

وأخيراً كانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على أربع خانات وضلعه ٢ ، ولله الواحد الأحد المربع المكون من خانة واحدة وضلعه واحد ، بحيث إنه لو ضرب فى نفسه لا يتغير أبداً »

ثم أخذ يبين أن هذه الأوفاق التى كانت موضوعة للسحر عند هذه الأمم أصبحت الآن موضوعة لورق لعب الميسر عند الأوربيين ، وأطال فى ذلك بما لا محصل لذكره .

هذا ما أردت أن أبينه لقراء « المعرفة » من هذا الكتاب الجليل المنقول عن الفرنسية ، ومنه نتبين

أن المصريين أصابهم ما أصاب غيرهم من جعل تلك الأوفاق البديعة الجميلة الدالة على جمال العقل الإنسانى قد استهوت عقول أمم وأمم إلى التنزل بذلك الجمال البديع من أفقه العالى ومقامه السامى ، فى مناطق العقل الإنسانى – إلى دركات الجهل والاستجداء ، وطلب المعونة من الكواكب تارة عند قدماء المصريين وغيرهم من الجن وغيرهم عند كثير من رعاع المتعلمين فى الديار الإسلامية .

إن عدوى التطور سريعة سرت من الأمم القديمة الى الأمم الحديثة ، وقد حلت هذه الجهالة بساحة الأمم الإسلامية وسرت إليها . . ألم تر إلى الباطنية فى العصور الأولى قبل ظهور حسن بن الصباح بقلعة الموت هناك كيف كانوا يجعلون للأوفاق المذكورة سلطانا على تابعيهم ، ويقولون إن المثلث – الذى تراه أمامك – له أثر فعال فى وضع الحامل وغير ذلك ؟ وقام أبو حامد الغزالى وفند آراءهم فى إنكار بعض فضائل الشريعة الإسلامية ، واحتج عليهم بأن هذا المثلث على ما تزعمون وتقولون إنه نافع ، فما المناسبة بين هذه الأعداد وبين وضع الحامل ؟ وإذا كنتم تجهلون ذلك الذى تزعمونه باطلاً فيكف تعرفون المناسبة بين الصلاة وبين نجاة الروح يوم القيامة ؟ . (انظر شكل المثلث فى كتابه الرد على الباطنية)

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

إن هذه الخرافات التى حلت بساحة عقول الأمم القديمة كالمصريين – حلت بساحة الأمم الإسلامية ولا تزال عالقة بأذهان صغار المتعلمين إلى الآن ، وكتبها التى تداولها الناس منتشرة انتشاراً. مزعجاً موقفة عقول كثير من صغار المتعلمين ، فيجب محوها من أمم الإسلام ، كشمس المعارف الكبرى للبونى وغيرها .

هذا ما كان عند الفاطميين كما قلنا أيام حسن بن الصباح فى القرن الخامس الهجرى ، أما هو فإنه حرم العلم على الخواص ، وأمرهم باتباعه هو وخلفائه ، ومنهم (أغاخمنون) بالهند اليوم ويتبعه ثلاثة ملايين من النفوس . . إذن فالقدماء استعملوا طريقتين فى تخدير الأمم :

الطريقة الأولى : طريقة السحر المتقدمة التى تجعل الإنسان متكلاً على شىء خيالى ، فيعيش خاضعاً لرئيسه بلا عقل ولا هدى ولا كتاب منير .

الطريقة الأخرى : أن يقول المتبوعون للتابعين لا تقرءوا العلم ؛ وإن العلم حجاب بين الله والناس !

والطريقتان معاً لا تزالان فى أمم الإسلام إلى الآن ، وكم من كتب سحرية خيالية نسبت إلى الدين والدين منها براء ، وما هى إلاّ عبادة الصابئين (عباد الكواكب) مزجت بآيات القرآن ! وكم من شيوخ صغار النفوس يزهدون الناس فى العلم ويقولون : إنه حجاب !

وإنما أفضت القول فى هذا المقام ؛ لتعلم أن معرفة تاريخ العلوم هو الذى يخرج الأمم من الظلمات إلى النور ؛ فلولا ما اطلعنا عليه من تاريخ العلوم الرياضية الآن لم نعرف من أين جاءت هذه الخرافات فى الكتب السحرية التى شاعت فى كل زمان ؟ فإذا كان تاريخ العلوم الرياضية قد أثبت أنها دخلتها خرافة السحر ، وربطت عقولا وعقولا فإنا نقول : وهذه الخرافة ها هى ذى الآن تودى بكثير من صغار المتعلمين ، فيجب على أمم الإسلام إزالة هذه الخرافة التى أدخلها قوم قبلنا فى الآيات القرآنية ، وجعلوا لها حساباً وأوفاقاً ، فبعد أن كان قدماء المصريين يتقربون بها للكواكب أخذها بعض قدمائنا ، ومزجوها بآيات القرآن ، فظن ضعفاء المسلمين أن هذا دين ، وما هو بدين ، إن هو إلاّ ضياع للشبيبة ، والسبب فى ذلك نشر تلك الكتب ، فيجب تحريم طبعها ونشرها بين المسلمين .

تذكرة : حدثنى أحد باعة الكتب فقال : كثيراً ما يرد لنا الشاب متأنقاً لابساً أحسن الملابس فيأخذ كتاب « شمس المعارف الكبرى للبونى » فلا يمضى عامان حتى يرجع كالأبله ضعيف العقل مختل الشعور !

مجلة « المعرفة » الجزء الثالث — السنة الثانية
يوليو سنة ١٩٣٢

مذهب داروين[1]

عند العرب

حضرات الدكاترة المحترمين محررى المقتطف الأغر.

أهدى لكم أجل تحية وتكريم ، وبعد فقد اطلعت فى مجلتكم الصادرة فى هذا الشهر على ما أجبتم به عن سؤال جاءكم من طرابلس الشام قال لكم فيه السائل : إنه رأى فى صفحة ٣٩ من كتاب « نظام العالم » ما يأتى : « إن العرب ربطوا ما بين الحيوان والإنسان بالقرد وغيره من بعض الحيوانات ، ولم يربطها داروين إلاّ بالقرد وحده . وإن داروين حصر بحثه فى قوس من (دائرة الوجود) ، فأجبتم بقولكم : (كلام غير صحيح !) والظاهر أن صاحبه لم يقرأ كتابا من كتب داروين ، ولو قرأ فصلا واحداً من كتبه ما قال شيئا من ذلك ، ولا نظن أن العرب قالوا شيئا فى هذا الموضوع لم نطلع عليه . ثم ضربتم مثلا مطولاً قلتم فى آخره : (فما قولكم فيمن يقول قولاً أو يرتئى رأيا ولا يؤيده بدليل نظرى ولا عملى ، ثم يدعى أنه سبق العالمين العاملين الذين يقضون العمر فى البحث والتدقيق إلخ ؟) فلما أن راجعت الكتاب فى صفحة ٣٩ لم أجد شيئا مما ذكره حضرة السائل ، وفيها ما نصه :

(القسم الخامس فى ترتيب الحيوانات ترتيبا إجماليا وكيف كانت درجات بعضها فوق بعض وترتيب النبات وشرح دائرة الوجود التى ذكرها الأقدمون والمناسبة بينها وبين مذهب داروين ؟)

هذا ما رأيناه فى تلك الصفحة من كتاب الزهرة الذى جعلناه مقدمة للكتاب ، فكأن السائل لم يقرأ كتاب « نظام العالم والأمم » ولو أنه قرأ وطالع الفصول التى شرحنا فيها مذهب العرب ومذهب داروين فى نحو ٨٠ صفحة لم يوجه لكم مثل هذا السؤال ، ولعلم إذ ذاك أننا لخصنا ما ذكره العلامة لويس بخنر الألمانى فى شرح مذهب داروين على سبيل الإيجاز مقارنين بينه وبين ما رآه المعتزلة وفلاسفة الإسلام : إن فى هذا لبلاغا لحضرة السائل . .

إن لنا معكم لقولاً آخر فاسمحوا لنا أن نناقشكم ما كتبتموه بالحجة والبرهان ؛ فإننا والحمد لله لسنا ممن يقول بلا بينة ، كما أنكم ممن تقدرون الحقائق قدرها وللحرية فى مباحثهم قدم راسخة ومنهج

(١) عن « جريدة مصر الفتاة » العدد ٣٤٣ بتاريخ ١٥ من نوفمبر ١٩٠٩ .

واضح وإذن نقول : إن السائل التقط بعض ألفاظ سؤاله من مواضع أخرى غير ما ذكره فجاءت محرفة الكلمة عن مواضعها مشوهة لا تسر الناظرين ؛ فعلىّ أن أوجز لكم ما أطلنا به هناك فأقول :

إننا ذكرنا أن العرب جعلوا دائرة الوجود سلسلة واحدة وهى الأثير والعنصر والمعدن والنبات والحيوان والإنسان والملك وهى درجات بعضها فوق بعض ، فتناول بحثهم العناصر والمعادن وشمل أقسام العالم واتصل اتصالاً مناسبا عجيبا ، بل تجاوزوا ذلك فجعلوا وجود كل فلك مما قبله . وليست المعادن مركبات عند الإفرنج كما كانت عند العرب ، وأكثر مبحث داروين إنما هو فى النبات والحيوان وقد أتى فيهما بالعجائب والغرائب ؛ وإن مذهب النشوء يعم المادة وما ينتج منها من شموس وأقمار وكواكب وقد تكفل بالبحث فى ذلك دى لابلاس ونيوتن وغيرهما من الفلاسفة العظام ، ولم يقل أحد إن داروين كان يشرح فى الأجرام السماوية كما ينظر فى طبائع العالم العضوى ولئن ذكر شيئا من ذلك فرضا إنما على سبيل الاستطراد ، فإذا قلنا : إن بحثه خاص بالحيوان والنبات لم نقل شيئا إداً ولم نبخس الرجل حقه !

إننا أطلقنا العنان للقارئ ولم نرد أن نصوغ عقله صوغا تقليديا ولا أن نحط به إلى دركات الجهالة ، وإنما شأننا أن نبسط الأقوال ونشرح براهينها ولا نضيق على القارئ الخِنَاق كى يصطفى ما يشاء .

غير أن التقليد فى العقائد كلها دينية أو علمية يئول بالأمم والأفراد إلى التقهقر والسقوط فى الهاوية . إننا جعلنا الكلام فى مقامين : الأول مقام اليقين والآخر مقام الشك :

فأما اليقين ففى اتساق هذه السلسلة الحيوانية والنباتية وتنظيمها وتناسقها وتلازم حلقاتها ؛ لأنه مما يدعو الناس إلى البحث عن حقائق الحيوان والنبات وعجائبها وغرائبها ؛ فإن النفوس البشرية تعشق كل كمال وجمال ، وتبحث عن حسنه وبهجته ، فيؤدى ذلك إلى بهجة العقول بحقائق خواصها ومنافعها وارتقاء أعمال الحياة العادية والسياسية . وهذا غاية علم العلماء وحكمة الحكماء .

وأما الشك ففى تعين الطريق المؤدى لهذا التناسق والانتظام والجمال والتوقف عن القطع بالتولد الذاتى أو غيره .

ولسنا بدعا فيما قلنا بل من العجب أن داروين فى آخر كتابه قال ما نصه : « إن المشابهة وأسبابا غيرها كثيرة تدعونا ضرورة للاعتقاد بأن عالم النبات والحيوان ناجمان من أصل واحد وأن لا فاصل بين العالمين – ثم استدرك على نفسه فقال : إنى أرى فيما يظهر لى أن الكائنات العضوية التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أزلية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة على أن أساس هذه النتيجة المشابهة ، فالتسليم بها وعدمه غير جوهريين »

وهذا بلا ريب قول حكيم قطع باليقين وتوقف فى الشك ، إن هذا العالم الحكيم أهل للإجلال ؛ فإنه جعل الجوهر هو المشابهة الداعية للعلم والتفقه فى علوم الحيوان والنبات ، وصغر من شأن ذلك العرض وهو الاشتقاق وعدمه فبمشابهة هذه العوالم تدعو إلى التحقيق بمعارفها ، ومن وقف نفسه على التبجح والاشتقاق وعدمه فقد سفهها واستمسك بمقال الخيال .

وكثير من الناس يجهلون أنواع الحيوان ولا يفهمون من النبات إلاّ أوراقه ، ثم يقولون : نعرف مذهب داروين كذب محض وخطأ فاضح .

ألا فليقرءوا وليفهموا كما أراد الرجل الحكيم . أليس من العجيب أن يكون ما سلكناه سبيلا فى كتابنا عما قاله العلامة داروين من أن المقلدين لأرباب المذاهب فى كل دين وأمة يقطعون بما فرضه الأولون ويستيقنون بما شك فيه الذاهبون ؟ ولذلك قام بعده شارحه الأستاذ « برن » مترجم داروين وندد بهذا القول وشنع عليه وأوسعه ذما وتقريعا وقال : ليس لنا إلا أن نتوسع بمذهب التسلسل الذى وضعه داروين حتى آخره ونجعل العالم العضوى مشتقا من صورة واحدة بسيطة جدا ، إن لكل مذهب سورة وحدّة تتقد فى نفوس متبعيه مدة من الزمان ، ثم تخف حدتها بل تخبو نارها على توالى السنين ، شأن كل كائن حى ، أليس سورة الأستاذ « برن » أخذت تهن وتخمد نارها فى مقالاته فى مجلة المقتطف فى الجزء الحادى عشر المجلد الثالث والثلاثين تحت عنوان « مواضع الوهن فى المادة » ؛ إذ نقل ما قاله « ديكارت » و « ليبنتز » . إنه طعن مذهب النشوء الطبيعى طعنة نجلاء . فأصاب مقاتله فى جواهره الفردة وفى مادته وقوته وفى تغيره من البسيط إلى المركب ، وفى أن الحياة والفعل مظهران من مظاهر بقاء القوة . ولقد أوهن هذا المذهب الطبيعى الشهير « هومبولت » حين وزن « السيارات » وقاس كثافتها فوجد أن أثقالها تناسب الرأى السديمى على خط مستقيم . وقال العلامة « تنول » إن أتعابى فى تقرير هذا المبدأ ذهبت أدراج الرياح ؛ فإنى لم أجد للتولد الذاتى من أثر ، بل وجدت كل تجربة تناقضه . وبمثل ما صرح « تنول » صرح غيره من كبار الحكماء مثل هكسلى وسبنسر وبرتون وغيرهم ، وكلهم مجمعون على أن العلم ينفى التولد الذاتى وينقض أقوال دعاته إلخ » وجاء فيه أيضا ما نصه : « ولقد رأيت الباحث المستجد كالنحلة تحط على أى زهرة عرضت لها : تارة يعجب بالمادية وطوراً بالإلهية ، ومن بين هذه وتلك كالقارب فى الخضم الهائج تتقاذفه الأمواج وتلاطمه اللجج وقد فقد الدفة ، فاستسلم للعوامل تذهب به حيث شاءت ، فإذا تعمق فى البحث قليلا وجد أن أتعابه ذهبت سدى ، وتحقق أن العقل البشرى لا يستطيع الوصول إلى علة العلل . هذا قول يشف عن حكمة فى نفس قائله ، وهو عين ما ارتضاه داروين لنفسه » .

فيا حضرات الدكاترة ، إذا كنا قضينا على آثار داروين والعلامة ليبنتز والفيلسوف هومبولت

وتنول وهكسلى وبرتون واختططنا لأنفسنا ما أقره رجال المقتطف أنفسهم وقلنا لأبنائنا فكروا وافقهوا وقارنوا فذلك مفتاح الرقى الفكرى وباب الحرية العقلية أفيكون قولنا إذ ذاك بلا حجة ولا برهان ؟ . . وإنى أجل رجال المقتطف الأجلاء عن الإقرار على ما كتبوه فى جواب السائل بعد ما بينا خطأ السؤال وما سلكناه فى هذا المنهج المبين ، ونعتذر عما فرط من حضراتهم فى الجواب ، لأن أعمالهم العظيمة لا تسمح لهم بقراءة كتابى . وهنا أوقفنا اليراع فى مضمار البحث فى آراء الإفرنج خوف السآمة والملل ، ثم عقدنا لآراء العرب فصلاً آخر نذكره بعد هذا فنقول :

آراء العرب فيما ذهب إليه داروين :

إن ما ضربتم من الأمثال فى جوابكم عند المقارنة فيما ذهب إليه العرب وما بحث فيه داروين وإن بحث الثانى نسبته إلى الأولين هائلة عظيمة كنسبة من فكر فى قناطر أمريكا الحديدية ولم يصنعها ، ومن فكر فصنع فحاز القناطير المقنطرة من الذهب والفضة مع أن الأول ليس عنده إلاّ الخيال – يدلنا على أنكم صورتمونا بصورة من يغمط الرجل حقه ولا يجعل للآخر فضلاً فى مباحثه وحاشى الله أن أبخس الباحث المتأخر حقه ؛ كما أنى لا أنسى للمتقدم سبقه ، ومن أظلم ممن يبخسون الناس أشياءهم فينسبهم ذكاء المتأخرين فضل المتقدمين أو تقدم الأولين مباحث الآخرين ! إننا قصرنا بحثه على النبات والحيوان والإنسان وهذا المقدار على تشعب مسالكه وتكثر فروعة جزء من دائرة العالم كله المسماة عند العرب بدائرة الوجود وهى التى أتم بحثها « لا بلاس » وغيره من العلماء الأوربيين المتأخرين ، فليس ذلك مانعاً من فضله ودقة بحثه ؛ فلكل أمة قسط من العلم وحظ من الفضيلة .

أما قولكم – ولا نظن أن العرب قالوا شيئا فى هذا الموضوع لم نطلع عليه تشيرون إلى ما قلنا من أن الرابطة بين الإنسان والحيوان هى القرد عند داروين وهى القرد وغيره من حيوانات أخرى عند العرب ، وأشرتم إلى أن العرب لم يزيدوا على أمة الرومان واليونان شيئا – فإنا نقول : لسنا الآن فى حاجة للكلام فى رفع شأن أمة العرب ؛ فقد قام به من هو أغزر علما فى التاريخ وأعلى كعباً وأكثر تمدينا وهو العلامة « سديو » الفيلسوف الفرنسى ؛ فلقد أثبت أنهم زادوا على الأمم السابقة فى مباحث كثيرة ، واكتشفوا واخترعوا . على أن هذا البحث لا يغنينا ، فلنحصر كلامنا فيما توخيناه وسقنا الكلام له :

إنا لو شئنا لكتبنا مجلداً ضخما فيما قاله العرب فيما نحن بسبيله من تشابه العالم العضوى من النبات والحيوان ، ولكنا نقول : كانت هذه المسألة شائعة بين أرباب العلم حتى ذكرها الفخر الرازى فى تفسيره فى سورة الروم فذكر تشابه هذه العوالم واتصال بعضها ببعض ، وأشار بالرد على مذهب الاشتقاق ، وفى هذا دلالة على وجود هذا المذهب فيما بينهم حتى احتاج للرد فى تلك العصور

السحيقة . وهاكم فصلاً وجيزاً من فصول إخوان الصفا لتعجبوا من تشابه الأقوال بين المتقدمين والمتأخرين وإن اختلفت فى بعض الوجوه ولتستبينوا صحة ما نقلناه عنهم . قال ما نصه بالحرف الواحد :

« واعلم أن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان ؛ كما أن أول مرتبة النباتية متصل بآخر مرتبة المعدنية ، وأول مرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء كما بينا من قبل : فأدْوَنُ الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة فقط وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذى فى سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة وتنبسط يمنة ويسرة تتطلب مادة يتغذى جسمها بها ، فإذا أحسّت برطوبة ولين انبسطت إليه ، وإذا أحست بخشونة وصلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذراً من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلا الحس واللمس فقط . وهكذا أكثر الديدان التى تتكون فى الطين وفى قعر البحار وأعماق الأنهار : ليس لها سمع ولابصر ولاشم ولاذوق ، لأن الحكمة الإلهية من مقتضاها ألا تعطى حيواناً عضواً لا يحتاج إليه ، وإلا كان وبالاً عليه فى حفظه وبقائه فى هذا النوع كحيوان نباتى لأنه ينبت جسمه كما ينبت بعض النبات ، ويقوم على ساقه قائما وهو من أجل أنه يتحرك جسمه حركة اختيارية حيوان ، ومن أجل أنه ليست له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوان رتبة فى الحيوانية . وتلك الحاسة أيضا قد يشارك بها النبات :

وذلك أن النبات له حس اللمس فقط ، والدليل على ذلك إرساله بعروقه نحو المواضع النِدية ، وامتناعه عن إرساله نحو الصخور واليبس أيضا ؛ فإنه متى اتفق منبته فى مضيق مال وعدل عنه طالبا للفسحة والسعة كأن فوقه سقفاً يمنعه من الذهاب علوا وإن كان له ثقب من جانب مال إلى نحو تلك الناحية حتى إذا طال طلع من هناك . فهذه الأفعال تدل على أن له حسا وتمييزا بقدر الحاجة ، وأما حسّ الألم فليس للنبات ، وذلك أنه لم يَلِقْ بالحكمة الإلهية أن تجعل للنبات ألما ولم تجعل له حيلة الدفع كما جعلت للحيوان ، وذلك أن الحيوان لما جعلت له أن يحس بالألم جعلت له أيضا حيلة الدفع : إما بالفرار والذهاب والهرب وإما بالتحرز وإما بالممانعة ، فقد بانت بما وصفنا كيفية مرتبة الحيوانية مما يلى النبات ، فنريد أن نبين كيفية مرتبة الحيوان فيما يلى رتبة الإنسان ، فنقول :

إن رتبة الحيوانية مما يلى رتبة الإنسان ليست من وجه واحد ، ولكن من عدة وجوه ؛ وذلك أن رتبة الإنسانية لما كانت معدة للفضل وينبوعاً للمناقب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان ، ولكن عدة أنواع : فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورة جسده مثل القرد ، ومنها ما قارب بالأخلاق النفسانية

كالفرس فى كثير من أخلاقه ، ومثل الفيل فى ذكائه ، وكالببغاء والهزار ونحوه من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات ؛ ومنها النمل اللطيف الصناعات إلى ما شاكل هذه الأجناس : وذلك أنه ما من حيوان تستعمله الناس ويأنس بهم إلاّ ولنفسه قرب من نفس الإنسانية : أما القرد فلقرب شكل جسمه من شكل جسد الإنسان صارت نفسه تحاكى أفعال النفس الإنسانية وذلك مشاهد منه متعارف بين الناس ، وأما الفرس الكريم فإنه بلغ من كرم أخلاقه أن صار مركبا للملوك ، وذلك أنه ربما بلغ من أدبه أنه لا يبول ولا يروث مادام بحضرة الملك أو حاملاً له . . وله أيضا مع ذلك ذكاء وإقدام فى الهيجاء ، وصبر على الطعن والجراح كالرجال الشجعان كما وصف الشاعر فقال :

وإذا شكا مهرى إلىّ جراحه عند اختلاف الطعن قلت له : اقدما
لما رآنى لست أقبل عذره عض الشكيم على اللجام وهمها !

وأما الفيل فإنه يفهم الخطاب بذكاء ، ويمتثل الأمر والنهى كما يمتثل الرجل العاقل المأمور المنهى »

هذا ما أردنا نقله من كلام فلاسفة الإسلام ؛ لنستبين السبيل وليقف الناس على نبذة من آراء الأولين ومباحث الآخرين فى هذا الموضوع ، وليعلم فضلاء محررى المقتطف الأغر أن ما ذكرناه عن العرب قد أوضحوه فى كتبهم بأوسع ما بينا .